ح. إبراهيم عمر السكران، 81437 هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السكران، إبراهيم عمر
الطريق إلى القرآن / إبراهيم عمر السكران - ط 1 - الرياض 1437 هـ
ص: 600 ص + 100 س.
رقمك: 1 - 939 - 2003 - 978
1- القرآن - مباحث عامة - 2- الوظاية والإرشاد - 3- العنوان
دبي 229 1437/3717

رقم الإيداع: 1437/3717
رقمك: 1 - 939 - 2003 - 978

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الثانية
1437 هـ - 2016

دار الحضارة للنشر والتوزيع
صب. ب 2823 الرياض 11865
هاتف: 966661127000 - فاكس: 966661127000
المبيعات: 966661418049 - الإنترنت: 9666614317049
الرقم الموحد: 9080908
بنة أحمد خليل
الحمد لله.. وبعد:
فلطالما أبهرنني حديث بعض الصالحين إذ يتحدثون
عما يرون من فرق مبهر في حياتهم، وعن فرق عظيم في
فهمهم وصحة نظرهم واستقرار تفكيرهم؛ بركة هذا
القرآن.
ولطالما أبهرنني حديث بعض الصالحين إذ يثرون
شجاعتهم عما يجدونه في أنفسهم بعد تلاوته القرآن،
يتحدثون عن شيء يحسون به، كأنما يلمسونه بحواسهم،
من قوة الإرادة في فعل الخيرات والتأبي على
المعاصي.
وراحة النفس في صراعات الأفكار والمنافسات
الاجتماعية، بل لقد أبهرنني فوق ذلك كله تشرف النبي
ذاته بالقرآن! سيد ولد آدم يترشح بكتاب الله، فانظر كيف يرسم القرآن حال النبي قبل القرآن، وحال النبي بعد القرآن، كما قال تعالى: {وَكَذَٰلِكَ أَوْحِيَ إِلَيْكَ رِيَاحًا مِّنَ الْخَلَقِ}. [الشعرى: 52]، وقول الله سبحانه: {كُنْتَ نَصُوحًا عَلَىٰ أَحْسَنِ اللّيْلَيْنِ}. [يوسف: 3].

فانظر بالله عليك كيف تأثرت حال النبي بعد إنزال القرآن عليه، بل انظر ما هو أعجوب من ذلك وهو حال النبي بعد الرسالة إذا راجع ودارس القرآن مع جبريل كيف يكون أوجود بالخير من الريح المرسلة كما في البخاري(1)، هذا وهو رسول الله الذي كمل يقينه وإيمانه، ومع ذلك يتأثر بالقرآن فيزداد نشاطه في الخير، فكيف بنفوسنا الضعيفة المحتاجة إلى دوام العلاقة مع هذا القرآن.

الإيمان في ليلهم كيف يسهرون مع القرآن «آمَّةُ قَابِيَةُ» يَتَّلُوَّنَ عَلَيْنَا اللَّهُ عَلَّمَةً عَلَّمَاهُ مُّنَّا [آل عمران: 112].
أترى أن الله جل وعلا ينوع ويعبد التوجيهات لتعميق العلاقة مع القرآن عبنا؟
فترة يحتشنا صراحة على التدبر «ألا يتدبرون القرآن» [محمد: 24]، وتارة يحتشنا على الأنصات إليه 
وإذا قريت القرآن فاستمعوا له، وأنصتوا» [الأعراف: 204]، وتارة يأمرنا بالتنفيس في الأداء الصوتي الذي
يخلب الألباب لتقترب من معاني هذا القرآن «وزي القرآن تربلاٍ» [المزمل: 4]، وتارة يأمرنا بالتهيئة
النفسية قبل قراءته بالاستعداد من الشيطان لكي تصفو نفسنا لاستقبال مضمونه «فإذ قرأ القرآن قاستعذ بإله من الشيطان» [النحل: 98]، وتارة يغرس في نفسنا استباحة البعد عن القرآن «وقال الرسول يكرب إنما» 
قوي أخذوا هذين القرآن مهجورا [الفرقان: 32]،
وتارتب أخرى يبنينا عليه فضله، وتيسيره للذكر فهل من مذكر، وعظمين المنة به... الخ، كل ذلك ليُرشخ علاقتنا
بالقرآن، فهل ترى ذلك كله كان اتفاقا ومصادفة لا
تحمل وراءها الدلالات الخطيرة؟!
بل هل من المعقول أن يكون القرآن الذي أقسم الله به، وتمدح بالتكلم به، وجعله أعظم الكتب السماوية التي أنزلها سبحانه، وخصوص به أفضل البشرية محمدًا ﷺ، وجعل حفظ ألفاظه خاصة أهل العلم، هل من المعقول أن تكون كل هذه الخصائص والشرف والعظمة للقرآن ويكون كتاباً اعتيادياً في حياتنا؟!

لا بد أن هذا الشرف للقرآن يعكس عظمةً في مضامين ومحتويات هذا القرآن ذاته، ولا بد أن يكون لهذا القرآن حضور في حياتنا يوازي هذه العظمة.

وفي هذه الرسالة القصيرة التي بين يديك حصيلة خطرات وتباريح حول واقع القرآن في حياتنا، وآثاره المبهرة الحسية والمعنوية.

و صلى الله وسلم على نبينا محمد وآلته وصحبه.

كم أبو عمر
ربيع الآخر 1432 هـ
من أعمج أسرار القرآن وأكثرها لفتاً للانتباه تلك السطوة الغريبة التي تخضع لها النفوس عند سماعه، «سطوة القرآن» ظاهرة حارت فيها العقول.

حين يسري صوت القارئ في الغرفة يغشي المكان سكينة ملموسة تهبط على أرجاء ما حولك، تشعر أن ثمة توترًا يغادر المكان، كأن الجمادات من حولك أطقت على الصمت، كأن الحركة توقفت، هناك شيء ما تشعر به لكنك لا تستطيع أن تعبر عنه.

حين تكون في غرفتك - مثلاً - ويصدح صوت القارئ من جهازك المحمول، أو القارئ في سيارتك في لحظات الانتظار ويتحاول صوت الإذاعة إلى عرض آيات مسجلة من الحرم الشريف، تشعر أن سكوناً غريباً يهادى رويداً رويداً. فيما حولك، كأنما كنت في مصنع يرتبط دوي عجلاته ومحركاته ثم توقف كل شيء مرة واحدة،
كأنما توقف التيار الكهربائي عن هذا المصنع مرة واحدة، فخيم الصمت وخفت الأنوار وساد الهدوء المكان، هذه ظاهرة ملموسة يصنعها "القرآن العظيم" في النفوس تحدث عنها الكثير من الناس بلغة مليئة بالحيرة والعجب.

يخاطبك أحياناً شاب مراهق يتذمر من ورده أو أمه، فتحاول أن تصور له عبارات تروية جذابة لتقنعه بضرورة احترامهما مهما فعلاً له، وتلاحظ أن هذا المراهق يزداد مناقشة ومجمدة لك، فإذا استعنت عن ذلك كله، وقلت له كلمة واحدة فقط: يا أخي الكريم، يقول الله تعالى: "واللهم اجعل لني جناح الّذي من الرحمٍ وقل رب آرحمهما كما ربي صغيرٌ" [الإسراء: 24]. رأيت موقف هذا الفتى مختلفاً كلياً، شاهدت هذا بأم عيني، ومن شدة أنفعالي بالموقف نسيت هذا الفتى ومشكلته، وعدت أفكر في هذه السطوة المدهشة للقرآن، كيف صمت هذا الشاب وأطرق لمجرد سماع قوله تعالى: "واللهم اجعل لني جناح الّذي من الرحمٍ وقل رب آرحمهما كما ربي صغيرٌ"، حتى نغمات صوته تغيرت، يا الله كيف هزته هذه الآية هزاً.

حين قدمت للمجتمع الغربي أول مرة قبل عدة
سنوات للدراسة؛ اعتنيت عناية بالغة بتبع قصص وأخبار حديثي العهد بالإسلام، كنت أحاول أن أكتشف سؤالًا واحدًا فقط:

ما هو أكثر مؤثر يدفع الإنسان الغربي لاعتناق الإسلام؟ حتى يمكن الاستفادة منه في دعوة البقية، كنت أتوقع أنني يمكن أن أصل إلى نظرية معقدة حول الموضوع، أو تفاصيل دقيقة حول هذه القضية لا يعرفها كثير من الناس، وقرأت لأجل ذلك الكثير من التجارب الذاتية لشخصيات غربية أسلمت، وشاهدت الكثير من المقاطع المسجلة يروي فيها غربيون قصة إسلامهم، وكنت مأخوذًا بأكثر عامل تردد في قصصهم، ألا وهو أنهم: سمعوا القرآن وشعروا بشعور غريب استحوز عليهم، هذا السيناريو يتكرر تقريباً في أكثر قصص الذين أسلموا، وهم لا يعرفون اللغة العربية أصلاً! إنها سطوة القرآن، والله يقول {لَوْ أَنْزَلَنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتُهُ خَلْصًا مُّصِدِّعًا مِّنْ حَسَنَى اللَّهِ} [الحشر: 21] هذا تأثير الجمادات فكيف بالبشر؟!

ومن أعجب أخبار سطوة القرآن قصة شهيرة رواها البخاري في صحيحه وقد وقعت قبل الهجرة النبوية وذلك
حين اشتد أذي المشركين لما حصرنا بني هاشم والمطلب في شعب أبي طالب، فهينذاك أذن النبي إلى أصحابه في الهجرة إلى الحبشة، فخرج أبو بكر يريد الهجرة للحبشة فقليقه مالك بن الحارث ابن الدغتا وهو سيد قبيلة القارة، وهي قبيلة لها حلف مع قريش، ومعهد أن يجري أبا بكر ويحميه لكى يعبد ربه في مكة، يقول الراوي: "فقطع أبو بكر يُعبِّد ربه في داره، ولا يستمعين بالصلاة، ولا القراءة في عين داره، ثم بدأ لأبي بكر فابتنى مسجداً بفترة داره وبزر، فكان يصل في فيه، وبقرآ القرآن، فينقصف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، يعجبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر زجلاً بكاء، لا يملك دموعه حين يقرأ القرآن، فأنزع ذلك أشرف قريش من المشركين".

هذه الكلمة: "فينقصف عليه نساء المشركين وأبناؤهم" من العبارات التي تطرق ذهني كثيراً حين أسمع تالياً للقرآن يأخذ الناس بتلابيبهم، ومعنى ينقصف أي يزدحمون ويكتظون حوله مأخوذين بجمال القرآن، فانظر كيف كان أبو بكر لا يحتمل نفسه إذا قرأ القرآن فتغلبه.

(1) صحيح البخاري: ٢٢٩٧، ٣٩٧، الطبعة السلطانية.
دموعه، وانظر لعوائل قريش كيف لم يستطع عتاة وصناديد الكفار الحيلولة بينهم وبين الهرب لسماع القرآن.

ومن أكثر الأمور إدهاشاً أن الله - جل وعلا - عرض هذه الظاهرة البشرية أمام القرآن على أنها دليل وحجة، فلهذا نبهنا إلى أن نلاحظ «سطوة القرآن» في النفوس باعتبارها من أعظم أدلة هذا القرآن ومن ينابيع اليقين بهذا الكتاب العظيم، ولم يشر القرآن إلى مجرد تأثر يسير، بل يصل الأمر إلى الخروج إلى الأرض، هل هناك انفعال وتأثير وجداني أشد من السقوط إلى الأرض؟

تأمل معي هذا المشهد المدهش الذي يرويه ربنا جل وعلا عن سطوة القرآن في النفوس: «قل: علماً إياكم أو ل تؤمنوا إن الله أن أبُولا العلَّم من قِبَلٍ» إذا يسَلُّ علَّمهم يحزوناً لِلأَدْقَان سُجِّدًا.» [الإسراء: 72]، بالله عليك أعد قراءة هذه الآية وأنت تتخيل هذا المشهد الذي ترسم هذه الآية تفاصيله: قوم ممن أوتو حظاً من العلم حين يتلى عليهم شيء من آيات القرآن لا يملكون أنفسهم في خروج إلى الأرض ساجدين لله تأثراً وإباحاً، يا الله ما أعظم هذا القرآن.

بل تأمل في أحوال قوم خير ممن سبق أن ذكرهم الله
في الآية السابقة، استمع إلى انفعال وتأثير قوم آخرين بآيات الرب. يقول الله تعالى: «أولئك الذين أنتم الله عليهم من النبيين من ذريته إدَّام ومثمن حملنا مع دُمٍّ وَمِن ذَرِّيَّةِ إِبراهَيمَ وَإِسْرَائِيلَ ومثمن هُدِينا وَجَبِينَا إذا نَبِل على عَلَّمَ جَزَّ الدُّحُنَّ حَرَوا سُجُدًا وَنُكْيِّي» [مرام: 88]. هذه الآية تصور "جنس الأنبياء"، ليس رجلا صالحا فقط، ولا قوم ممن أوتوا العلم، ولا نبيا واحدا أو نبيين، بل تصور الآية "جنس الأنبياء"، وليست الآية تخبر عن مجرد أدب عند سماع الوحي وتأثير يسير به، بل الآية تصور الأنبياء كيف يخرون إلى الأرض ي يكون، الأنبياء!! جنس الأنبياء!! يخرون للأرض ي يكون حين يسمعون الوحي، ماذا صنع في نفوسهم هذا الوحي العجيب؟

وقوم آخرون في عصر الرسالة ذكر الله خبرهم في معرض المدح والتثمين الضمني في صورة أخاذة مبهرة يقول الله تعالى: «وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إلى النَّسْوَى تَرَى أَنْهُم مَّنَفْسَبُ مِنْ آَمَنِّي» [المائدة: 33]. أي: شخص يقرأ الآية السابقة يعلم أن هذا الذي فاض في عيونهم من الدموع حين سمعوا القرآن أنه شيء قادرتهم على الاحتمال، هذا السر الذي في القرآن هو الذي استثار تلك الدموعات
التي أراقوها من عيونهم حين سمعوا كلام الله، لماذا تسكبت دموعهم؟ إنها أسرار القرآن.

هذه الظاهرة البشرية التي تعترفي بني الإنسان حين يسمعون القرآن ليست مجرد استنتاج علمي أو ملاحظات نفسانية، بل هي شيء أخبرنا الله أنه أودعه في هذا القرآن، ليس تأثير القرآن في النفوس والقلوب فقط، بل أيضاً تأثيره الخارجي على الجوارح، الجوارح ذاتها تهتز وتضرب حين سماع القرآن، قشعريرة عجيبة تسري في أوساط الإنسان حين يسمع القرآن، يقول الله تعالى: "أَلَمْ نَزِلَ عَلَيْهِ الْبَلَاغَةُ عَلَىٰ مَهْدٍ مُّقْرِنٍ بِالْأُسُورِ؟" [الزمر: 23] لاحظ كيف يرسم القرآن مراحل التأثر، تقشعر الجلود، ثم تلين، إنها لحظة الصدمة بالآيات التي يعقبها الاستسلام الإيماني، بل والاستعداد المفتوح للانقراض لمضمّم الآيات.

ولذلك مهما استعملت من البحوث الخاطفية في أساليب مخاطبة الناس وإقناعهم فلا يمكن أن تصل لمستوى أن يقشعر الجلد في رهة المواجهة الأولى بالآيات، ثم يلين الجلد والقلب لربه ومولاه، فيستسلم
وينقاد بخضوع غير مشروط، هذا شيء يراه المرء في تصرفات الناس أمامه، جرب مثلاً أن تقول لشخص يستفتيك: هذه معاملة بنكية روبية محرمة بالإجماع، وفي موقف آخر: قدم بآيات القرآن في تحريم الربا، ثم ذكر الحكم الشرعي، وسترى فارق الاستجابة بين الموقفين؛ بسبب ما تصنعه الآيات القرآنية من ترويض النفوس والقلوب لخالقها ومولاها، تماماً كما قال تعالى: «تشعر بمنزلة جلود الذين يحمون، ثم تلبن جلودهم وقلاقلهم إلى ذكر الله».

وفي مقابل ذلك كله، حين ترى بعض أهل الأهواء يسمع آيات القرآن ولا يتأثر بها، ولا يخضع لمضامينها، ولا يفعل وجدانه بها، بل ربما استمتع بالكتب الفكرية والحوارات الفكرية وتنالذ بها وقضي فيها غالب عمره، وهو هاجر لكتاب الله يمر به شهر ويتدبر ويبحث عن مراد الله من عباده، إذا رأيت ذلك كله؟ فاحمد الله يا أخى الكريم على العافية، وتذكر قول الله سبحانه «فويل لفسيس قلوبهم» (تِن ذِکْرِ اللَّهِ» [الزمر: 22])

وحين يوفقك ربك فيكون لك حزب يومي من
كتاب الله، كما كان لأصحاب رسول الله  أحزاب يومية من القرآن، فحين تنهي تلاوة وردك اليومي فاحذر يا أخي الكريم أن تشعر بأي إدلاء على الله أنك تقرأ القرآن، بل بمجرد أن تنتهي فاحمل نفسك على مقام إيماني آخر، وهو استشعار منه الله وفضله عليك أن أكرملك بهذه السويعة مع كتاب الله، فلولا فضل الله عليك لكان تلك الدقائق ذهبت في الفضول كما ذهب غيرها، إذا التفتت النفس لذاتها بعد العمل الصالح نقص مسيرها إلى الله، فإذا التفتت إلى الله لتشكره على إذاتك على العبادة ارتفعت في مدارج العبودية إلى ربه ومولاها، وقد نبهنا الله على ذلك بقوله تعالى:  ولَوْلا فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ، مَا زَكَّ إِنْذَارُنَا مِنْ أَنْ هُدَيْنَا أَبِدًا  (النور: 21) وقال الله:  وَقَالَ اللَّهُ ﷺ: وَفَالَتَ كُلُّ لَكُمُ الْعُمُّ  (الأعراف: 42).  

فتركية النفس فضل ورحمة من الله يفضل بها على عبده، فهو بعد العبادة يحتاج إلى عبادة أخرى وهي الشكر والحمد، وبصورة أدق فالمرء يحتاج لعبادة قبل العبادة، وعبادة بعد العبادة، فهو يحتاج لعبادة الاستعانة قبل العبادة، ويحتاج لعبادة الشكر بعد العبادة، وكثير من الناس إذا عزم على العبادة يجعل غاية عزمه التخطيط والتصميم الجامع،
وينسي أن كل هذه وسائل ثانوية، وإنما الوسيلة الحقيقية هي: الاستعانة.

ولذلك وبرغم أن الاستعانة في ذاتها عبادة إلا أن الله أفردها بالذكر بعد العبادة فقال: «إِيَّاكَ نَبِيُّ اللَّهُ نُشْثِبُكَ» [الفاتحة: 5]، وهذه الاستعانة بالله عامة في كل شيء، في الشعائر، وفي المشروعات الإصلاحية، وفي مقاومة الانحرافات الشرعية، وفي الخطاب الدعوي، فمن استعان بالله ولجأ إليه ففتح الله له أبواب توفيقه بألطف الأسباب التي لا يتصورها.

على أية حال، لا يمكن أن يفوت القارئ ملاحظة هذه الانفعالات التي يحدثها القرآن في النفوس، والتي هي "سطوة القرآن" فعلاً، والسامة أصل معناها كما يقول ابن فارس: "أَصْلُ يَدْلُّ عَلَى الْقَهْرِ وَالْغَلُوِّ" (1)، فالقرآن له قهر وعلو ملموس على النفس، وهذا المعنى نظر وصف الله للقرآن بالإزهاق وقُلْ جَاءَ الحَقَّ وَرَهَقَ الْبَطِيْلُ [الإسراء: 81]، ونظر وصف الله للقرآن بالدمغ "بِلْ نَقْذِفُ يَلِهَّيْلًا عَلَى الْبَطِلِ فِيْدَمَعْهَا" [الأنبياء: 18]، ونظر وصف الله

(1) معجم مقاييس اللغة: 3/71، تحقيق: عبد السلام هارون.

ولصحة هذا المعنى فإنك تجد في كتب الآثار أوصافاً للقرآن تدور حول أثره في النفس كعبارة "زواجر القرآن" وعبارة "قوارع القرآن"، ونحوها مما هو متداول في كتب الآثار.

والسطوة بمعنى العقوبة فعل لاحق بالله كما جاء في بعض الآثار عند ابن حبان وغيره: "إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَنْزَلَ سَتِّوْتُهُ" (1)، ويكثّر في كتب التفسير بالمأثور كالطبري وابن كثير ونحوهم قولهم: "يحذرهم الله سطوته" (2).

(1) صحيح ابن حبان: 7356، 8/183، طبعة التأصيل.
اللَّهُمَّ اجعلنا من أهل القرآن، اللَّهُمَّ أخي قلوبنا بكتابك، اللَّهُمَّ اجعلنا ممن إذا استمع للقرآن أقشعر جلده ثم لا يجلس وقلبه لكلامك، اللَّهُمَّ اجعلنا ممن إذا سمع ما أنزل إلى رسولك تفيض عيوننا بالدموع، اللَّهُمَّ اجعلنا ممن إذا تليت عليه آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً، اللَّهُمَّ إذا نلتجرئ إليك ونتصل بجنابك أن لا تجعلنا من القاسية قلوبهم من ذكر الله.
تأمل كيف تنفعل الجمادات الصماء بسكونة القرآن
«لَوْ آتَنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبِلٍ قَرْنَتُهُ حَتَّى مَصِدَّعَا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ» [الحجر: 21]، الجبال الرواسى التي يضرب المثل في صلاحتها تتصدع وتشقق من هيبة كلام الله.

وتأمل كيف انبهر نساء المشركين وأطفالهم بسكونة القرآن، ففي «صحيح البخاري»: «أَنَّ أَبَا بْكَرِ ابْنَى مُسْجِداً بِفَنَاءِ دَارِهِ وُبْرَزَ، فَكَانَ يُصَلُّ فِيهِ، وَيَقُرُّ القُرَآنَ، فَيَنْقَبُ عَلَيْهِ نَسَاءَ الْمُشْرِكِينَ وَأُبْنَائُهُمَّ، يُعْجِبُونَ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو بْكَرُ رَجُلٌ بَكَاءٌ، لَا يَمْتَلِكُ دَمَّعَةً حِينَ يُقُرّ القُرَآنَ، فَأَفْنُعَ ذَلِكَ أَشْرَافُ قُرْشٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (1)، والتقصف هو: الاشددام والاكتظاظ.

وتأمل كيف انبهر صناديد المشركين بسكونة القرآن،

(1) صحيح البخاري: 2297، 97/3، الطبعة السلطانية.
ففي البخاري أن جبير بن مطعم أتى النبي ﷺ يريد أن يفاوضه في أسارى بدر، فلما وصل إلى النبي ﷺ وإذا بالمسلمين في صلاة المغرب، وكان النبي ﷺ إمامهم، فسمع جبير قراءة النبي ﷺ، ووصف كيف خلت أحساسه سكينة القرآن، كما يقول جبير بن مطعم: "سُمِّعَت النَّبِيَّ يَقُرَّاً في المَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةِ: "أَمَّمَ خَلَقْتُكُمْ عِنْدَيْنِ، أَمْ هُمْ أَحَدُونَ الْعِتْرَاتِ، أَمْ هُمْ يَوْمَ الْيَمِينِ، أَمْ عِندَهُمْ حَرَاسُ نَجْحَبِ، أَمْ هُمْ أَمْسِطَرُونَ؟"، كَذَٰلِكَ قَلْبِي أَنْ يَطَّيِّرُ، اللَّهُ دِرَّ الرَّبَّ عِلَمَ عَبَارَاتِهِمْ، هكذا يصور جبير أحساسه حين سمع قوارع سورة الطور، حيث يقول: "كَذَٰلِكَ قَلْبِي أَنْ يَطَّيِّرُ"، هذا وهو مشرع، وفي لحظة عداوة تستغر إثر إ لإهال القتال، وقد جاء يريد تسليمه أسرى الحرب، ففي خضم هذه الحالة يعد أن يتأثر المرء بكمام خصمه، لكن سكينة القرآن هزته حتى كاد قلبه أن يطير.

وتأمل كيف انبعثت تلك المخلوقات الخفية الجِنّ بسكون القرآن، ذلك أنه لما كان النبي ﷺ في موضع يقال له: "بَطْنُ نَخْلَةٍ" وكان يصلي بأصحابه صلاة الفجر و

(1) صحيح البخاري: ٣٧٧، ١٥٤/١، الطبعة السلطانية.
فهياً الله له مجموعة من الجن يسمون (جنُّ أُهُلِّ نَصَبَٰبُينَ)، فاقترحوا من رسول الله وأصحابه، فلما سمعوا قراءة النبي في الصلاة انبحروا بسكونة القرآن، وأصبحوا يوصون بعضهم بالإنصات، كما يقول الله تعالى: (وَإِذْ صَرَفَهُ إِلَّا يَوْمَ يَوْمِ الْقَرَءَانِ فَلَمَّا حَضَرَهُ قَالُوا أُنْصِثُوا) [الأحقاف: 29]، وأخبر الله في موضع آخر عن ما استحوذ عليه هؤلاء الجن من التعجب فقال تعالى: (فَقَلَ أُوْيَى إِلَّا أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفْرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجِيِّبًا) [الجن: 1].

وتأمل كيف انبحر صالحو البشر بسكونة القرآن، فلم تقتصر آثار الهيبة القرآنية على قلوبهم فقط، بل امتدت إلى الجلود فصارت تقتبض من آثار القرآن، كما قال تعالى: (وَلَعَلَّهُ أَحْسَنَ اللَّيْدِينَ لِلْمُتَّقِينَ كَبِيْرًا وَقَبَّةً تَقْسِيِّمًا مِّنْهُ جُلُودُ الْقُلُوبِ) [الزمر: 23].

وتأمل كيف انبحر صالحو أهل الكتاب بسكونة القرآن، فكانوا إذا سمعوا تالياً للقرآن ابتدته دموعهم يراها الناظر تتلاعّم في محاجرهم كما صورها القرآن في قوله تعالى: (لَيَجْدَ أَشْدَدُ الْقُلُوبِ عَذَابًا لِّلْذِينَ كَذَّبُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَيَجْدَ أَقْرَبَهُمْ مَآءَةً مِّنَ اللَّدُنَّ فَأَمَاتُوا الْلَّدِينَ)
قالوا: إنّا نصدّريّم ذلك بأنّ منّهار قُبيلة وَرْهَبَانَا وَأَنْحَرُوا لا يَسْتَمِعْنَوَأَسَدْعُونَ ما أُنْزِل إلى الرسول ﷺ نَّرَتَآ أَعْمَى هُمُّ
تَغْيِبَ مِنَ الدَّمَّ عَلَى الْوَجْهِ» [المائدة: 22، 83].

وتأمل كيف انبهرت الملائكة الكرام بسكونة القرآن، فصارت تتهادي من السماء مقتربة إلى الأرض حين سمعت أحد قراء الصحابة يتغنى بالقرآن في جوف الليل، كما في صحيح البخاري عن أسد بن حضير قال: «بيتّنا هو يقرا من اللَّيْل سُورَة البقرة... وَقَرَّغَتْ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا نَظَّرَتْ نَظَرَ النَّاسِ إِلَيْهَا، لَا تَتوَارِى مِنْهُمْ».

ولا يُضَحَّى يَنظُر النَّاسُ إِلَيْهَا، لَا تَتوَارِى مِنْهُمْ)

واستلم كيف انبهر الأنبياء عليهم أعزى الصلاة والسلام بسكونة الوحي، كما يصور القرآن تأثيرهم بكلام الله، وخروجهم إلى الأرض، وبياإلهم; كما في قوله تعالى: «أَوْلَٰئِكَ الَّذِينَ آتَمُنَّا لِلْهُ عَلَيْهِمْ مِنْ آدَمَ وَمِنْ ذَرَّتِهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَيَعْقُوبَ وَهُمْ هُدُيَّانَا»

(1) صحيح البخاري: 1800/6، الطبعة السلطانية.
وأخيرًا: تأمل كيف انبهر أشرف الخلق على الإطلاق، وسيد ولد آدم محمد ﷺ بسكونة القرآن، ففي البخاري عن عبد الله بن مسعود أنه قال: "قال لي رسول الله ﷺ: "أقرأ عليَّ" قال: "أقرأ عليَّ وعليك" أنزل قال: "إني أشتهي أن أسمعه من غبّري" قال: "فقرات النساء حتى إذا بلغت: "فكيف إذا جنستا من كل أمّ في جلدها وجنستا بك عليه هتؤلاء شهيداً" قال لي: "كيف أمسك...؟ قرأت عليه ذكرى نافعًا".

يا لأسرار القرآن، ويا لعجبات هذه الهيبة القرآنية التي تتزامن على النفوس فتختبئ لكلام الله، وتتسمل الدموع والمرء يداريها ويتلحنج، ويشعر المسلم فعلاً أن نفسه ترفف من بعد ما كانت تتتقال إلى الأرض.

هكذا إذن.. الجمادات الروايش تتصرد، ونساء المشركين وأطفالهم يهافتون سراً لسماع القرآن، وصمد يفاضض في حالة حرب ومع ذلك "كاد قلبه يطير" مع...
سورة الطور، والجني استنثت بعضهم بعضًا وتعجبوا
وولوا إلى قومهم منذرين، والمؤمنون الذين يخشون ربهم
ظهر الأقشعرار في جلودهم، والقساوسة الصادقون فاست
عيونهم بالدموع، والملائكة الكرام دنت من السماء تتلألأ
تقترب من قارئ في حَرَّات الحجاز يلحن في جوف الليل
بالبقرة، والأيّاء من لدن آدم إذا سمعوا كلام الله خروا
إلى الأرض ساجدين باكين، ورسول الله ﷺ حين سمع
الآية تصور عرضاً للحياة وحَظَّة الشهادة على الناس
استوقف صاحب ابن مسعود من شدة ما غله من البكاء!!
رباه.. ما أعظم كلامك، وما أحسن كتابك، كتاب
هذا منزلته، وهذا أثره؟ هل يلقي بنًا يا أخي الكريم أن
نهمله؟ وهل يلقي بنًا أن نتصفح يومياً عشرات التعليقات
والأخبار والإيميلات والمقالات، ومع ذلك ليس
لـ"كتاب الله" نصيبٌ من يومًا؟ فهل كتب الناس أعظم من
كتاب الله؟ وهل كلام المخلوقين أعظم من كلام الخالق؟!
وهل روايات الساردين أعظم من قصص القرآن!!
لقد أشتكى رسول الله ﷺ من كفار قومه حين وقعوا
في صفة بشعة، فواحسرتاه إن شاءنا هؤلاء الكفار في هذه
الصفة التي تذمر منها رسول الله ﷺ، وجاء بالشكوى
إلى الله منها، يقول رسول الله ﷺ في شكوهاء: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَدْرِئَ إِنَّ قَوْيًا أَخْرَجْتُوهُ هَذَا النَّارُ مُهْجُورًا}. [القرآن: 30].

أي خسارة؟ وأي حرمان؟ أن يتجاري الكسل والخمول بالمرء حتى يتدهور في منحدرات "هجر القرآن"!! إذا كان رسول الله ﷺ وهو حبيبنا الذي نفديه بأنفسنا وأهلينا وما نملك يشتكى إلى ربه الكفار بسبب "هجر القرآن"، فهل نرضى لأنفسنا أن نخالف مراد حبيبنا رسول الله ﷺ؟ هل نرضى لأنفسنا أن ننزل في المربع الذي يؤدي رسول الله ﷺ؟ فأين توقيع نبينا ﷺ؟

أخي الذي أحب له ما أحب لنفسي، القضية لن تكلفنا الكثير، إنما هي دقائق معدودة من يومنا نجعلها حقاً حسرياً لكتاب الله، نتقلب بين مواضعه وأحكامه وأخباره، فنتزكي بما يسال في آياته العظيمة من نبض إيماني، ومعدن أخلاقي، والتزامات حقيقية، ورسالة عالمية إلى الناس كافة.
حَادِثَةٌ حُكَايَةٌ لَي مَرَّةً أَحَدَ الْآفَاقِاءِ قَبْلَ زَهَاءٍ خَمْسٍ عَشَرَةِ سَنَاتُهَا، كَانَ يَتَنَأَّبُ لِي بَشَكَ عَرْضِيّ لَا يُبَقَّ يَخْلُقَ وَهُوَ أَيّْاً يَتَنَأَّبُ، لِكَنَّ قَصَتَهُ تَقَالُ مَا زَالَتْ تَتَنَأَّبُ عَلَى ذِهْنِي بَيْنَ فَيْنَةٍ وَأَخْرَىٰ، قَرْبِيُّهَا هَاذَا يَسَكُنُ قَرْيَةً مُحَدَّدَةً فِي عَاليَةِ نَجْدِهَا وَيُرُوِّي لَي أَنَّهُ فِي الْأَيَامِ الْعَلِیَّةِ مِنَ الْسَنَةِ يَغْلَقُ أَجَهَزَةَ الْتَكْيِفِ وَيَنَامُ قَرْبًا مِنَ النَّافِذَةِ، وَيَعْلَمُ عَنِ الدَّخُوَلِ الْثَلَثِ الْآخِرِ عِنْدَ الْلَّيْلِ عَبْرَ صوْتَ أَحَدِ الْكِهْلِ فِي الْقَرْيَةِ يَدْخِلُ الْمَسْجِدُ مَعَ الْهَيْزِيِّ الْآخِرِ عِنْدَ الْلَّيْلِ، وَفِي فَنَاءِ الْمَسْجِد يَفْتِرُشُ طَرَفًا مِنَ السَّجَادَةِ الْطَوِيلَةِ وَيَبْدَأ يَرْتِلُ الْقُرْآنَ فِي صَلَاتِهِ بِطَرِيْقَةِ كَبَارِ الْسَنَةِ الْمَعْهُوْدَةِ، وَهَذِهِ عَادَتُهَا كِلَ لَيْلَةٍ.

مَنْذَ حَكَيَ لِي قَرْبِيَّ لِي قَصَةَهَا، وَأَنَا أَتْحَبُّ ذَلِكَ الْكِهْلِ لأَرْيَ صَلَاتِهِ الْرَّوْحَانِيَّةِ، يَا لَيْتَكَ يَتْرَاهُ وَهُوَ يَقْبَضُ لَحَيِّهِ بَيْنَ حَيَّ وَاخْرَىٰ، ثُمَّ يَسْتَرَسِلُ فِي قَرَاءُتِهَا، لَقِدْ كَادَ
يأخذ بأنحاء قلبي، قراءته تلك ليست بتجويد مصدق، ولا حتى بصوت أنيق، ولكنها - وعزة جلال الله - فيها صدق ويقين أحس أن حوله هالة نور وهو يقرأ ويرتل.

صحيح أن القرآن بعامة يحمل طاقة تأثيرية تغلب لب المستمع، ولكن هناك عنصر إضافي صرت ألمسه أخيراً، وهو أن القرآن إذا خيم سيكون الليل يكون عالماً آخر، ثمة قدر إضافي في جلال القرآن لحظة سكون الليل، وذلك الكهل القرآني، توفي قبل سنوات قلائل - رحمه الله رحمة واسعة -، ولكن ما الذي بعث قصته من مرقدها في ذهني؟

الحقيقة أن الذي يقظ هذه القصة القديمة قصة مماثلة مرّت بي وأنا أتصفح صحيح البخاري، وأنا واثق أنك منذ أن تقرأ هذه القصة في البخاري فلن تخطئ عينك وجه العلاقة، فقد روى البخاري عن النبي ﷺ أن قال: "إني لأعرف أصوات رفقة الآشعييين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أر منازلهم حين تزلوا بالظهيرة" (1)، لاحظ كيف لم

(1) صحيح البخاري: 4232، 138/5، الطبعة السلطانية.
ير النبي ﷺ منازلهم بالنهاض، ثم استطاع أن يحدد موقعها لما خيم الليل بسبب ما بدأ يتسرب منها من حنين المرتلين، إنها "منازل الأشعرين".

يا الله.. والله عليك ألا تلمس في كلمات رسول الله ﷺ حرارة الإعجاب لذك الترتيل الذي يتهادى من منازلهم بالليل؟! واضح أن النبي ﷺ لم يكن يخبر عن مجرد سمى مصادفة لتلاوتهما الليلية، بل تكاد تتحسس كيف كان النبي ﷺ متأثرا بروعة ذلك الصوت القرآني لدرجة تتبع مصدره وتعيين موقعه في الليل، ثم الأخبار بذلك نهاراً، هكذا يكشف مشاعره:

"وأعرِفُ منازِلَهمَ‏ من أصوائِهم بِالْقُرآن بِاللَّيْلَ، وَإِن كَنْتَ لَمَّ أُرُ منازِلَهمُ حِينَ نَزَلَوا بِالْنَّهارِ"، هل تصدق أنني شعرت بحب جارف لأولئك الأشعرين الذين كانت أصواتهم بالقرآن بالليل تستثير إعجاب رسول الله ﷺ، بل لقد دفعني ذلك الحب أن أبحث عن شيء من أخبارهم في كتب التراجم والسير، صحيح أنني وجدت لهم بعض الفضائل، لكنها لم تشفِ نفسي إلى الآن عن خبرهم، وخبر ليلهم الذي كانوا يهرونه مع كتاب الله، فالتّلّهُم ارض عن الأشعرين.
النبي ﷺ كان يسمع القرآن بالنهاي قطعاً، فلماذا
جذبته قراءة الأشعريين وصار يتلقت إلى منازلهم إذن؟
لا أدري. لكي ننسته إلى أنها أسرار القرآن
بالليل، فآيات القرآن إذا هبطت غيوم المساء صارت تتدفق
بروحانية خاصة، انبعث صوت القراء بالقرآن بين أمواج
الليل الساكن قصة تنحني لسنا النفس.
وقد مرت بي شواهد أخرى لاحظتها فيها هذا
الحنين النبوي لصوت القرآن بالليل. ففي «صحيح الإمام
مسلم» أن النبي ﷺ قال مرة لأبي موسى: «لو رأيتني وَأَنَا
آسِمِعُ لِقَرَأَتِكَ الْبَيَارِحَةُ»(1)، يبدو أن رسول الله ﷺ يشتد
اهتمامه لمصدر الصوت حين يسمع قارناً يقرأ القرآن وسط
ظلام الليل، حتى أنه إذا أصبح أخير أصحابه بتلك
القراءات القرآنية الليلية، وقاله: «لو رأيتني وَأَنَا آسِمِعُ»
يدل على أن النبي ﷺ أعار الأمر اهتمامه، وأخذ ينصت;
تذكر معي هاهنا أن رسول الله ﷺ يحفظ القرآن بإخفاء الله
له، ومع ذلك ينصت لمصدر الصوت بالقرآن مهتماً، ثم
يخبر أصحابه بعد ذلك، لماذا؟

(1) صحيح مسلم: 793، 193/2, الطبعة العامة.
إنها أسرار روحانية القرآن حين تسخوذ على سكون الليل البهيم، ليس البشر فقط، بل حتى الملائكة خرجت عن استئثارها يوماً حين انبعث صوت الصحابي بالقرآن، ففي «صحيح البخاري» عن أسيد بن حضير قال: «بينما هُوُّ يَقُوِّرُ من اللَّيْلِ سُورَةَ البَقَرَةَ... فَرَفَعَ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا بَيْلُ الْطَّلَاءِ فِيهَا أَمْتَالُ المَصَابِيحِ، فَخَرَجَتْ حَتَّى لا أَرَاها»، قال رسول الله ﷺ: «وَتُدْرِي مَا ذَاك؟»، قال: «لَا، قال رسول الله ﷺ: «يَلُكَّ المَلَائِكَةُ دَنْتُ لَصَوْيَكُ، وَلَوْ قُرَّاتَ لأَصْبَحْتَ يَنْظُرُ النَّاسُ إلَيْهَا، لَأَتَتْوَرَى مِنْهُمْ»(1)، كلما سمعت قارئاً يتلاوا شيئاً من سورة البقرة، ومرت بي بعض المواضع المثيرة للعقل البشري، وفي البقرة مواضيع تهزو النفوس هژاً أعظمها آية الكرسي التي كُلها في أوصاف الجلال الإلهية، وقصة تقلب وجه الرسول ﷺ في السماء تهفو نفسه لتغيير القبلة، وقصة ابتلاء إبراهيم الخليل بالكلمات وإمامته في الدين، وقصة الملائ من بنى إسرائيل الذين طلبوا القتال ثم أخذوا يتساقطون على مراحل، ومواضع عجيبة أخرى، والمراد أنني كلما سمعت قارئاً

(1) صحيح البخاري: 8018، 190/6، الطبعة السلطانية.
يتلوا شيخاً من البقرة تذكرت تنزل الملائكة بأنوارهم حين
أخذه أسيد بن الحضير يرثي البقرة وسط جنح الظلام.
لماذا تنزلت الملائكة كأنها المسابيح تتلألأ
وخرجت عن استوارها؟ إنها عجائب كتاب الله حين يهيمن
فوق سكون الليل، بل تأمل في خبر أعجب من ذلك كله،
وهو أن النبي ﷺ كان يبحث أصحابه بشتى الطرق
المباشرة وغير المباشرة - على تلاوة القرآن بالليل، كان
رسول الله ﷺ يبعث رسائل ضمينة أثناء تحدثه مع أصحابه
تغرس فيهم مركزية تلاوة القرآن إذا لفت المساء المدينة،
ومن تلك القصص أنه ذُكر مرة في مجلس النبي ﷺ
الصحابي الجليل "شريح الحضرمي" فأنى النبي ﷺ عليه
بطرقية ليس من الصعب بحثاً فهم الرسالة الضمنية فيها.
فقد روى النسائي وغيره بسنده صحيح "أن شريحًا
الحضرمي ذُكر عند رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ:
ذلك رجل لا يتوسد القرآن" (1)، فدعني أعرف لك أولاً
أنني حين قرأت هذا الحديث أول مرة لم يستتب لي

(1) سنن النسائي: 1799، 3/498، طبعة التأصيل، وأحمد:
15724، 24/500، طبعة الرسالة.
وجهةً ما يعني: «لا يَتَوَسَّدُ الْقُرْآنُ» ؟ وهل هناك أحد أصلاً يجعل القرآن وسادة لا سمح الله؟
وإذا بالمعنى أنه لا ينام بالليل ويترك حزبه من القرآن، لكن البلاغة النبوية العظيمة صورت من ينام عن القرآن كأنه اتخذ القرآن وسادة!
والنص له وجهان، إما أن يكون الرسول ﷺ يمدح من لا يتوسّد القرآن، أو يدمم من يتوسّد القرآن، ورحب ابن الجوزي في غريبه والسندي في حاشيته الوجه الأول، وعلى كلا التقديرين فالحاصل هو تنبيه الرسول بطريقة بلاغية مثيرة على مكانة تلاوة القرآن بالليل، إذا كان النوم عن القرآن شبهه الرسول ﷺ باتخاذه «وسادة»، فيبدو أن وسائداً تهتك من كثرة النوم عليها! فallashtum arham alhal ولا تجعلنا ممن يتوسّد مفحوطنا من القرآن.
وفي كتاب الله إشارات إلى ذلك الجمال الأخاذ لقراءة الوحي بالليل، منها: أن الله تعالى أثني مرة على قوم بذلك، فقال تعالى في وصفهم: "أَمَّةٌ قَلِيمَةٌ يَتَّلُونَ عَلَى اللَّهِ ءَايَاتُهُ مَطَامِينَ [آل عمران: 113]"، هل تستطيع أن تمنع الشجروح حين تتخيل هؤلاء القوم الذين أحب الله فيهم التغني بأيات الوحي إذا أرى الناس إلى فرشهم؟ الله ﷺ.
يُثمن منهم هذا الموقف ويخلده في كتابه العظيم، أخذت مرة أتأمل مثل هذه الأخبار القرآنية النبوية عن جلال القرآن في الليل، وأخذت أتساءل: ما سبب ذلك يا ترى؟ هل هناك تفسير علمي لذلك؟ لم أصل لنتيجة حاسمة، لكن بدأت لي بعض الإشارات في كتاب الله.


ولذلك فإن المعرض عن القرآن يصاب بالآلام النفسية كما قال تعالى: «وَمَنْ أُعْرِضَ عَن ذَكْرِيْ فإِنَّ لَهُ مُعْبِسَةٌ ضَنكُّا [طه: 124]، فالحياة الطيبة الحقيقية لا تكون إلا لأهل الإيمان كما قال تعالى: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثى» [النحل: 97].»
والمراد أن من تأمل اهتمام النبي تجاه مصدر الصوت بالقرآن في الليل حين قال: "إِنِّي لآَهْلِ فَنَازِلَةِ الأَشْعَرَّيْنِ بِاللَّيْلِ مِنْ أَصْوَائِهِمْ بِالْقُرْآنِ"، وحين قال لأبي موسى: "لَوْ رَأَیتُنِی وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقَرَائَتِكَ الْبَارِحَةِ"، ومدح النبي لشريح الحضرمي بأنه "لَا يَتَوَسَّدُ الْقُرْآنُ"، وتنزل الملائكة كأنها المصابيح حين أخذ السيد بن حضير يرتل سورة البقرة بالليل، ومدح الله لأولئك القوم بأنهم "أَمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّلُونَ آیَاتِ الَّذِی أَوْحَیَ إِلَیْهِ ۖ عَلَیّاَ أَیَّلًا" [آل عمران: 113]. إلخ.

من تأمل ذلك كله، فهل سيعود ليلة يتصرم في سهرات ترفيهية مع الأصدقاء، أو تصفح التر最基本ة الفكرية ومقاطع اليوتيوب على شبكة الإنترنت! هل سيرحل أكثر اليوم وليس فيه إلا انهمالك في تتبع تعليقات غير نافعة على شبكات التواصل الاجتماعي؟ هاهو العمر يمضي والناس من حولنا لا يمضى أسبوع إلا ويلقال: أَحْسَنِ اللَّهُ عَزَّ الْأَمَانَةَ في فلأن، فهل يا ترى سيفنى العمر هكذا في الفضول والترفيه ونحن لم نتذوق حلاوة كتاب الله آناء الليل؟
الحديث عن قسوة القلب حديث ذو ثرو، ومن رزقا هذا الزمن أن صرنا لا نستحي من المناصحة عن قسوة القلب بينما قلوبنا كالحجارة أو أشد قسوة. لكن دعنا يا أخي نناجي بعضنا بالمحبوبين يتشاجى بعضهم لبعض كيف يهربون من معتقلات خطاياهم.

لقد قرأت كثيراً كثيراً في كتب الرقائق والإيمانيات والمواعظ، وجريت كثيراً من الوسائل التي ذكروها، وأصدقق القول أنني رأيتها محدودة الجدوى، لا أنكر أن فيها فائدة، لكن ليست الفايدة الفعلية التي كنت أتوقعها، ووجدت العلاج الحقيقي الفعال الناجح المذهل في دواء واحد فقط، دواء واحد لا غير، وكلما استعملته رأيت الشفاء في نفسي، وكلما ابتعدت عنه عادت لي أسقامي، هذا العلاج هو بكل اختصار: "تدبر القرآن".

دع عنك كلما ذكره صيادلة الإيمان، ودع عنك كل
عقاقي الرقائق التي يصفونها، واستعمل: تذبر القرآن، وسترير في نفسك وإيمانك وقوتك على الطاعات ونفورتك من المعاصي ورائة نفسك في صراعات المناهج شيئاً لا ينقصي منه العجب.

كل تقصير يقع فيه الإنسان، سواء كان تقصيراً علمياً بالتأويل والتحرير للشريعة، أو كان تقصيراً سلوكياً بالرضوخ لدواعي الشهوة، فإنه فرع عن قسوة القلب.

وهل تعلم كيف تحدث قسوة القلب؟

قسوة القلب ناشئة عن بعد عن الوعي، ألا ترى الله تعالى يقول: «أَلَمْ يَأْتِ الْيَوْمَ الْيَتَّنِينَ يَا مَائِنَةَ أَن تَخَشَّعُنَّ قُلُوبَكُمْ إِلَيْهِ الْهَيْرَةً وَمَا نَزَّلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أَوْثَانُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمْدُدُ فَقَسَّمَ قُلُوبَهُمْ» [الحديث: 16].

أرأت يا أخي؟ إنه طول الأمد...!!

لما طال بهم الأمد قست قلوبهم، ولو جذدوا العهد مع الوحي لحيث قلوبهم، فإذا قسا القلب تجراً الإنسان على الميل بالشريعة مع هواه، وإذا قسا القلب تهاون الإنسان في الطاعات واستثقلها، وإذا قسا القلب عظمت الدنيا في عين المرء فأقبل عليها وأهمل حمل رسالة...
الإسلام للناس، وإذا قسا القلب ضعفت الغيرة والحمية
لدين الله!!

وما العلاج إذا؟

العلاج لما يحيك في هذه الصدور هو: مداواتها
بتدبر القرآن، والله عليك تأمل في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنِينَ الْقُلُوبُ مَا رَزَقْتُكُمْ مِنْ رَزْقِيْنَ، وَأَشْفَعَتُكُمْ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهَذَا وَرْحَمَتُ لِلْمُؤْمِنِينَ) [يونس: 75]، هكذا تقدم الآية
المعنى بكل وضوح (وشفه ليما في الصدور)، ولكن ما
الذي في الصدور؟

في الصدور شهوات تشوش، وفي الصدور شبهات
تبني، وفي الصدور حجب غليظة، وفي الصدور طبقات
مطمورة من الرين (لا يل رآن على قلوبهم ما كانوا يكتبون
المطففين: 14]، وهذه الدوايات التي في الصدور
دعاها كما قال الله: (قَدْ جَآءَتُكُمْ مَوْعَظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشْفَةٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ) [يونس: 75]، فإذا شفعت الصدور
وجدت خفة نفس في الطاعات، وإذا شفعت الصدور
انقادت للنصوص بكل سلاسة ونفرت من التأويل
والتحريف، وإذا شفعت الصدور تعلقت بالآخرة
واستهانت بحطام الدنيا، وإذا شفعت الصدور امتلأت
بحمل هم إظهار الهدى ودين الحق على الدين كله.
وأعجب من ذلك أنه إذا شفيت الصدور استقرمت الأهداف الصغيرة، تلك الأهداف التي تستعملها النفس الوضيعة، الولع بالشهرة، وحب الظهور، وشغف الرياضة والجاه في عيون الناس، وشهمة غلبة الأقران، النفوس التي شفاهها هذا القرآن، ترى كل ذلك حطام إعلامي ظاهره لذئب فإذا جرب الإنسان بعضه اكتشف تفاهته، وأنه لا يستحق لحظة من العنان فضلاً عن اللهوات سنوات، فضلاً عن تقبل أن يقوم المرء بتحويل الوعي ليقال: فلان الوسطى الراقي الوطني التنموي الحضاري النيهسي التقديمي، إلى غير ذلك من عصائب الأهواء التي تعشي العيون عن رؤية الحقائق.

وهل يمكن أن يكون تحريف معاني الشريعة لا صلة له بقوس القلب؟! أفلا تقرأ معي يا أخي قوله تعالى: "وَجَعَلْنا فَلَوْبَهُمْ قَدِيسَةً يُلْحَفُونَهُ الْحَكِيمُ عَن مَّوَاضِيَةٍ" [المائدة: ١٣].

على أيّة حال... دعنا نعيد قراءة آية الشفاء "يَكَبَّىَ النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكَ مَوَاعِظَةً يَنْتِجُكَمْ وَشَفَاءً لَّمْا كَيْ لَبَّ، وَهُذِئْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ يُؤْمِنُونَ" [يُونس: ٧٠] يا الله! هل
قال الله: "وشفاءً لِما في الصُدُور." نعم إنه شفاء لما في الصدور، هكذا بكل وضوح، هذا القرآن يا أخي له سحر عجيب في إحياء القلب وحركته النفوس وعمارتها بالشوق لباريها جلّ وعلا، وسر ذلك أن هذا القرآن له سطوة خفية مذهلة في صناعة الإخبات والخضوع في النفس البشرية كما يقول الله تعالى: "وَلَيَعلَمُ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيَمُوتُوا بِهِ فَتَخْتُبَ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ" [الحج: 54]. 
فإذا أخبرت النفوس، وانفعلت بالتأثر الإيماني، انحلت قيود الجوارح، ولهج اللسان بالذكر، وخفقت الأطراف بالركوع والسجود والسعي لدين الله، كما يصور الحق تبارك وتعالى ذلك بقوله: "اللَّهُ نُزِلَ أَحْسَنَ الْمَعَالِمَ كِتَابًا مُّفْتَهَرًا مُّتْقَسِرًا مِّنْهُ جَلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبِّهِمْ ثُمَّ تَلِينُ جَلُودُهُمْ وَقَلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ" [الزمر: 23]. لاحظ كيف تشعر، ثم تلين، إنها الرهبة التي تليها الاستجابة، وتلك هي هيبة القرآن.
حالات الانحراف عن التدين حالات تذيب القلب مرارةً، وخصوصاً إذا كان المنحرف صديقاً قريباً عشت معه أيام العلم والإيمان، وحالات الانحراف بينها تفاوت كبير، فبعضهم مشكلته "علمية" بسبب رهبة عقول ثقافية كبيرة انهمز أمامها، وبعضهم مشكلته "سلوكية" بسبب ضعفه أمام لذائذ اللهو والترف، وإن كان الأمر دوماً يكون مركباً من هوى وشبهة لكنه يكون أغلب لأحدهما بحسب الحال، فإما تعتبره شبهة تقوده للتمرغ في الشهوات، وإما تغلبه شهوة فيطلب لها الشبهات والخرج والخيل.

وأنا إلى هذه الساعة على كثرة ما تعاملت مع هذه الحالات لا أعرف علاجاً أنفع من "تدبير القرآن" فإن القرآن يجمع نوعي العلاج "الإيمانى والعليمي" وهذا لا يكاد يوجد في غير القرآن، فالقرآن له سر عجيب في صناعة الإحباط في النفس البشرية "ولِعْلَمَ أَلَّذِينَ أَوْثَنُا"
وفي القرآن من بيان العلم والحق في مثل هذه القضايا المنهجية ما لا يوجد في غيره، ومفتاح الهدية مقارنة هدي القرآن بأسلوبيات التيارات الفكرية، أعني أنه إذا رأى متدبر القرآن تفريق القرآن بين المعترف بتقسيمه حيث جعله قريباً من العفو وآخرون أعتبروا يدؤوبهم حظوظاً عملاً صليحاً ومأخر سبيباً على الله أن ينوب عليهم [التموeba: 112] وبين تغطية وبرير التقسيم بحيل التأويل الذي جعله الله سبباً للمفسخ ولقد أعلمنا الذين أعودوا منكم في البقرة 50، ومجرد المعصية بالصيد في اليوم المحرم لا تستحق المسخ فقد جرى من بني إسرائيل ما هو أكثر من ذلك ولم يمسخهم الله، ولكن الاحتيال على النص بالتأويل ضاعف شناعتها عند الله جل وعلا.

وإذا رأى متدبر القرآن أيضا تعظيم القرآن.
لمرجعية الصحابة في فهم الإسلام، وربطه فهم الإسلام بتجربة بشرية، كقوله تعالى: "إِنَّ هُوَ الَّذُّينَ آمَنُوا بِمَآ أُمِّنُتُمْ بِهِنَّ [البقرة: 137]"، وقوله تعالى: "وَالذُّنَّانَ آتَنَاهُم بِالجَلْدِ [الإسراء: 100]"، وقوله تعالى: "صَرَطَ الذِّينَ آتَنَّاهُمْ آنَمَتْ عَلَيْهِمْ [النور: 32]"، وقوله تعالى: "وَإِنَّا أُوْلَىٰ بِهِمْ لَعَلَّهُمْ يُرِيدُونَ لأُخْتِامُهُمْ أَوْ أُمَّهُمْ أَوْ أَبِيَّتِهِمْ [الساقي: 24]"، وقوله تعالى: "وَأَنْفُذُوا عَلَيْهِمْ ذَلِكَ [البقرة: 76]"، وقوله تعالى: "وَلَوْ رَدَّوُ الْرَّسُولُ وَالذِّينَ أَوْلَىٰ الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّهُمْ يُسَتَّبِطَنُونَ [النساء: 38]". ففي مثل هذه الآيات البيئات يكشف تعالى أن الوحي ليس نصاً مفتوحاً، بل هو مرتبط بالاهتمام بتجربة بشرية سابقة، فيأمرنا صريحاً أن نؤمن كما أمن الصحابة، وأن نتبع الصحابة بإحسان، ويأمرنا بكل وضوح أن نرد الأمر إلى أولي العلم الذين يستنبتونه، وهذا كله يبين أن الإسلام ليس فكرة مجرد مفردة مفتوحة الدلائل يذهب الناس في تفسيرها كل مذهب، ويتناول الفهم لكل شخص كما يميل، بل هناك (نموذج سابق) حاكم للتفسيرات اللاحقة للنص.

وإذا رأى متدبر القرآن أيضاً بيان القرآن لتفاحة الدنيا، وكثرة ما ضرب الله لذلك من الأمثال كنهيه نبيه عن
الترفقات إلى الدنيا (ولا تندو عندي إلى ما متاعنا به) أزمنا
راحهم زهرة الحياة الدنيا لنتلهم فيه» [طه: 131]. يتأمل فيها النبي
قل لأؤوكم إن كنت تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعلموا
أعملن وأصبحن سراً جميلاً (8) وإن كنت تردن الله
ورسله، والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنين مثيل أجر
فعظيمًا [الأحزاب: 28، 29]، فانظر منزلة الدنيا في معيار
القرآن.

وإذا رأى متدبر القرآن - أيضاً - ما في القرآن من
بيان الله لحقارة الكافر وانحطاطه حيث جعله القرآن في
مرتبة الأنعام والدواب والحمير والكلاب والنجاسة
والرجس والجهل واللاعقل والعمى والصمم والبكم
والضلال والحيرة. وغيره من الأوصاف القرآنية المذهلة
التي تملأ قلب قارئ القرآن بأقصى ما يمكن من معاني
ورمادات المهانة والحقارة، كقوله تعالى: «والذين كفروا
بهم منا وراءهم كما تأكل الأنعام» [محمد: 12]، وقوله: «إن
هم إلا كالمأمون بل هم أضل سبيلًا» [الفرائض: 44] وقوله:
»مثل الذين خحتوا القرآن ثم لم يحملوها كمثل الحجار يحمل
أسفارًا (الجمعة: 5)«، وقوله: «ففتقه كمثل الحكيم إن
تحمل عليه يلهث أو تتركه يلبث» [الأعراف: 176].
وقوله: "إن شر الوَّلَادِيَةِ عند الله التَّلَيْن كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ" [الأنفال: 95]. وقوله: "سَكَذَّبُوا يَجِبَّعَلُ الله الحَجَّةَ عَلَى الْذَّيْنَ لَا يُؤْمِنُونَ" [الأعام: 125]. وقوله: "يَتَأْيِبُها الْذَّيْنَ ءَامَنُوا إِنَّما الْمُشْرِكُونَ لَجَسَدُوهَا" [النور: 28].

وأمثالها كثيرة.


وإذا رأى متدبر القرآن أيضا عظمة تصوير القرآن للعبودية كتصويره المؤمنين في ذكرهم الله على كل الأحوال "الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الله قَبْلَما وَفَعَّلُوا وَعَلَّ الْجَنَّةِ" [آل عمران: 191] وحينما أراد أن يصف الصحابة بأخص صفاتهم
قال: "محمد رسول الله وآلِهِ مِمَّأْ عُلِّيُّ الكُتُّارِ رَحِيمًا بَيْنِهِمْ تَرَنُّهمْ رَكَّة سُجُودًا [الفتح: 29] وكيف وصف الله ليلهم الذي يذهب أغلبه في الصلاة: "إِنَّ رَبِّي يَقُلُّ أَنَّكَ تَفُورُّ أَنَّكَ" [المزمل: 20].
والمراد أنه إذا رأى متدرِب القرآن هدي القرآن في هذه القضايا وأمثالها، ثم قارنها بأحوال التيارات الفكرية المعاصرة، ورأى ما في كلام هؤلاء من تأويلات للنصوص لتوافق الدوق الغربي، والإسراء باتباع السلف في فهم الإسلام، وملء القلوب بحب الدنيا، واللهج بتعظيم الكفار، وتهليل الحواجز بين الجنسين، والارتهاء العبادي الظاهر... إلخ. إذا قارن بين القرآن وبين أحوال هؤلاء افتح له باب معرفة الحق.
حين أسمع بعض المفكرين الإسلاميين يتكلمون عن ضرورة مقاومة وتفنيد الأفكار الضالة الجديدة عبر دراسات فكرية موسعة، فلا أخفى أنني أحترم تماماً حراسهم على سلامتة التصورات الإسلامية من الاجتياح العلماني المعاصر، لكنني أرتاب كثيراً في نجاعة هذه المبالية في التعويل على الدراسات الفكرية.

عندى وجهة نظر لكني لا أوح بها كثيراً؛ لأنني أرى بعض المفكرين الإسلاميين يتصور أنها نوع من التثبيط والتخدير، فلذلك ألوذ بالصمت، وجهة نظرى هذه بكل اختصار هي أن أمر الانحرافات الفكرية المعاصرة أسهل بكثير مما نتصور، فلو نجحنا في تعبئة الشباب المسلم للإقبال على القرآن، وتدربر القرآن، ومدارسة معاني القرآن، لتهابت أمام الشاب المسلم الباحث عن الحق - كل التحريفات الفكرية المعاصرة نشيما يختم أول «خطة تدبر».
بالله عليكم لو قرأ الشاب المسلم - الباحث عن الحق - آيات القرآن في حقيقة الكافر، وأيات القرآن في وسيلة الدنيا ومرزقية الأخرى، وأيات القرآن في التحفظ والاحتفاظ في العلاقة بين الجنسين، وأيات القرآن في إقصاء أي فكرة مخالفة للولحي، وأيات القرآن في وجوب الوصاية على الانحراف عبر شريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأيات القرآن في تقليد الحريات الشخصية بالإنكار والاحتساب والحدود، وأيات القرآن في أزلية الصراع بين الحق والباطل، وأيات القرآن في وجوب هيمنة الشريعة على كل المجتمعات، وأيات القرآن في نغم النسبية وإثبات اليقين، وأيات القرآن في مسخ أقوام قردة خاسرين لما تسليتوا على ألفاظ النصوص بالتأويل لتوافق رغباتهم وأهوائهم، وأيات القرآن في ارتباط الكوارث الكونية بالمعاصي والذنوب، وأيات القرآن في ترتيب جدول أولويات النهضة بين التوحيد والإيمان والفرائض والفضيلة وإعداد القوة المدنية. إلخ.

فبأله عليكم قولوا لي ماذا ستبقي - بعد ذلك - من أطلال الانحرافات الفكرية المعاصرة؟!

حين يقرأ الشاب المسلم - الباحث عن الحق - مثل
هذه الآيات فإنه ليس أمام «خطاب فكري» يستطيع التخلص منته عبر مخرج «الاختلاف في وجهة النظر»، بل هو أمام «خطاب الله» مباشرة، فإما الانصياع وإما النفاق الفكري، ولا تسويات أو حلول وسط أمام أوامر ملك الملوك، لتجهذ فقط في تحريض وشجذ العقل المسلم المعاصر للإقبال على القرآن، وتدره القرآن، في تجرد معرفي صادق للبحث عن الحقيقة، وصدقوني ستفاجأ كثيراً بالنتائج.
قراءة واحدة صادقة لكتاب الله، تصنع في العقل المسلم ما لا تصنعه كل المطلولات الفكرية بلغتها الباذجة وخيلائها الاصطلاحي، قراءة واحدة صادقة لكتاب الله، كفيلة بقلب كل حيل الخطاب الفكري المعاصر رأساً على عقب.

هذا القرآن حين يقرر المسلم أن يقرأه بـ«تجرد»، فإنه لا يمكن أن يخرج منه بمثل ما دخل عليه، هذا القرآن يقلب شخصياتك ومعاييرك وموازينك وحيمنتك وغيرتك وصيغة علاقتك بالعالم والعلوم والمعارف والتاريخ، وخصوصاً إذا وضع القارئ بين عينيه أن هذا القرآن ليس مجرد «معلومات» يتعامل معها ببرود فكري، بل هو رسالة تحمل قضية ودويًّا.
وإن من أكثر الأمور لفتاً للانتباه في هذا القرآن العظيم، هي ما حكاه الله عن انفعال الأُنْبِياء بالقرآن انفعالاً وجدانياً وعاطفياً عميقاً، خُذ مثلاً: لما ذكر الله مسيرة الأُنْبِياء عقب بذكر حالهم إذا سمعوا آيات الوحي حيث يقول الله تعالى: «أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَنَّاهُمْ آياتِنَا مِن ذُرُّّتِيْنِ إِلَّا الإِنَّهُمْ عَلَىٰ مَّسَاعٍ مَّرْجَعَهُمْ إِلَيْنَا وَإِلَىٰ مَّسَاعٍ هُدُنَا وَإِجْبَرَنَا إِذَا نُبِلِّمُ عَلُّهُمْ رَحْمَةُ اللَّهِ خَرَوْا سَجُدًا وَطْبِقًا [مريم: 84]، يا الله... هذه الآية تصور «جنس الأُنْبِياء» لا بعضهم، فلنظر بالله عليك كيف يبلغ اتصالهم بـ«كلام الله» مبلغ الخروج إلى الأرض ودموعهم تذرف بكاءً وتأثراً، أي انفعال وجداني أعظم من ذلك؟!

ويصف تعالى مشهداً آخر يأسر خيال القارئ، حين يصور أهل الإيمان وهم يستقبلون آيات الِوِحي فيقول الله تعالى: «وَإِذَا سَمَعُوا مَا نُزِّلَ إِلَى الَّذِينَ رُسُلُنَا رَزَّنَاهُمْ أَعْمَنَاهُمْ فَقَالُوهُنَّ يَوْمَئِذٍ وَمَذْهَبُهمُ وَمَوْتُهُمُ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ [المائدة: 83].

ويصف تعالى مرة أخرى أثر القرآن الجسدي وليس الوجداني فقط فيقول الله تعالى: «اللَّهُ نُزِّلَ آخَسَنَ الْحَكِيْمَةِ كَثِبْرَ مَثْنِيَّةٌ مِّثْلَ مَثْنِيَّةٍ مَّنْهُ جَلُّوْدُ الْمَلِئِ يَحْسَوُونَ رَبِّهِمْ ضَيْفً مِّنْهُ جَلُُّوْدُهُمُ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ [الزمر: 27]."
على أية حال .. لو أفلحنا في إقناع الشاب المسلم بالإقبال على القرآن بالتدبر الصادق المتجدد للبحث عن الحق .. فاعتبروا أن الدور المعرفي تقريباً انتهى، وبقيت مرحلة الإيمان، فمن كان معه إيمان وخوف من الله فسيحمله على الانقياد والانصياع لله سبحانه، ومن أخرى لهواعد العنان، فسيختبئ في شعب النفاق الفكري، حيث سيبدأ بأن يعلن على الملاذ .. كما يعلن غيره .. أنه يحترم ضوابط الشرعية .. لكنه في دخيلة نفسه يدرك أن كل ما يقوله مخالف للقرآن ..!!

بقي الاستثناء الوحيد ها هنا، وهو أني أقول أن من كانت نفسه المعرفية سوية؛ أعني: أنها تنظر في جوهر البرهان وليس في شكليات الخطاب فلن يحتاج إلا لقراءة القرآن بتجزء، أما من كان يعاني من عاهات في شخصيته الفكرية، بحيث أنه يقدم وهج الديكور اللغوي على جوهر البرهان، فهذا النوع المريض من الناس قد يحتاج فعلًا بعض الكتابات الفكرية التي تخدعه بعض الطلاء التسويقي، كما قال الإمام ابن تيمية في حادة مشابهة في كتابه "الرد على المنطقيين": "وبغض النسًا: يكون الطريق كلهما كان أدق وأelry وأكثر قُدُمًا وأطول
كان أنفع له؛ لأن نفسه اعتادة النظر الطويل في الأمور الدقيقة، فإذا كان الدليل قليل المقدمات، أو كانت جليّة، لم تفرّغ نفسه به... فإن من الناس من إذا عرف ما يعرفه جمْهُورُ الناس وعَمُومُهم، أو ما يمكن غير الأذكياء معرفته، لم يكن عِند نفسه قد استَنار عنهم بعلم، فيجب معرفة الأمور الخفيفة الدقيقة الكثيرة المقدمات(1).

أخيراً: أعطوني ختمة واحدة بتنجرد، أعطيكم مسلمًا حنيفاً سنياً سلفاً، ودعوا عنكم المغالاة في أهمية الكتب الفكرية الموسعة، ولنجعل القرآن "أصلًا" وغيره من الدراسات الفكرية مجرد "تبع".

* * *

(1) الرد على المنطقيين: ص 255.
 كثير من الناس يتساءل ويقول: ماذا أتدبر بالضبط في القرآن؟ والحقيقة أن القرآن فيه حقائق وإشارات كثيرة تحتاج إلى التدبر، ثمة مفاتيح كثيرة لفهم القرآن. أعظم وجه ومفاتيح الانتفاع بالقرآن تدبر ما عرضه القرآن من حقائق العلم بالله، فما في القرآن من تصورات عن الملائكة العليا هي من أعظم ما يزكي النفس، وكثيرًا من المنتسبين للفكر المعاصر يظن الأهم في القرآن هو التشريعات العملية، وأما باب العلم الإلهي فهو قضية ثانوية، ولا يعرف أن هذا هو المقصود الأجل والأعظم، ولذلك قال الإمام ابن تيمية: "فإن الخطاب العلمي في القرآن أشرف من الخطاب العملي قدرًا وصفة"(1)

وأما شخصيًا إذا التقت بشخصية غريبة متميزة في

(1) درء التعارض: 358/5
الفكر أو القانون أو غيرها من العلوم آجاهد نفسي مجاهاة على احترام تميزه؛ لأنني كلما رأيتهم في غاية الجهل بالله ﷺ، امتلأت نفسي إزراء بهم، ما فائدة أن تعرف تفاصيل جزء معين من العلوم وأنت جاهل بأعظم مطلوب للإنسان، إنه لا يختلف عن سائق مركبة يتقن تفاصيل بعض الطرق الفرعية ويجهل الطرق الرئيسية في المدينة، فهل مثل هذا يصل؟ أي تخلف وانحطاط معرفتي يعيشه هؤلاء الجهلة بالعلم الإلهي.

ويولمني القول بأن كثيراً من المنتسبين للفكر العربي المعاصر يجهلون دقائق العلم بالله التي عرضها القرآن، وأما أئمة السلف الذين وثنا عليهم علوم الشرعية فقد كانوا في ذروة التبحر في دقائق القرآن، فمن تأمل - مثلًا - رسالة الإمام أحمد في الرد على الزنادقة، أو رسالة الدارمي في النقض على المرسيي، فستتحوذ عليه الدهشة من عمق علمهم بالقرآن وما فيه من أسرار المعرفة الإلهية، وشدة استحضار الآيات وربط ما بينها، ليست معرفة آحاد وأفراد الألفاظ فقط، بل معرفة السلف بالقرآن مركبة، فتجدهم يلاحظون منظومة لوازم معاني القرآن، ويستخلصون في تقريراتهم حصيلة توازنات هذه المعاني القرآنية.
ومن وجه الانتفاع بالقرآن - أيضاً - تدبَّر أخبار الأنبياء التي ساقها القرآن وكررها في مواضع متعددة، وبدهي أن هذه الأخبار عن الأنبياء ليست قصصاً للسلية، بل هي نماذج يريد القرآن أن يوصل من خلالها رسائل تضمينية، فتتبدَّر قارئ القرآن ماذا أراد الله بهذه الأخبار؟ مثل التقتنع العبودية للأنبياء وطريقتهم في التعامل مع الله كما قال الإمام ابن تيمية: «وَالقُرآنَ قَدْ أُخْبِرَ بِأَدْعِيَةِ الأنبياءَ وَتَوْبَاتِهِمْ وَاستغفارِهِم» (1)

وتلاحظ أن الله يخفي ويعيد قصص القرآن في مواطن متفرقة، وليس هذا تكراراً محضاً، بل في كل موضع يريد الله تعالى أن يوصل رسالةً ما، وأحياناً أخرى يكون في كل موضع إشارة لجزء من الأحداث لا يذكره الموضع الآخر، كما قال الإمام ابن تيمية مثلاً: «وَقَدْ ذَكَرَ الله قِصْصَهُمْ - أي: قوم لوط - في مَواضِعِ بَينَ الْقُرْآنِ وسُورَةِ هُوَدَّ وَالْجِرَحِ وَالْمُنْكَبْوِيْنِ، وفي كُلِّ مَوْضِعٍ يَذُكَّرْ نُوعًاً مِمَّا جِرَى» (2)

(1) تلخيص الاستغاثة: 1/121.
(2) الرد على المنطقيين: ص 494.
والمهم هاهنا أن تدبر أخبار الأنبياء، وأخبار الطغاة، وأخبار الصالحين، في القرآن، ومحاولة تفهم وتحليل الرسالة الضمنية فيها؛ من أعظم مفاتيح الانتشار بالقرآن.

ومن أعظم وجه الانتشار بالقرآن - أيضاً - أن يضع الإنسان أمامه على طاولة التدبر كل الخطابات الفكرية المعاصرة عن النهضة والحضارة والتقدم والرقي والإصلاح والاستنارة . . . إلخ، ويضع كل القضايا التي يرون أنها هي معيار التقدم والرقي، ثم يتدبر قارئ القرآن أعمال الإيمان التي عرضها القرآن كمعيار للتقدم والرقي، تأمل فقط بالله عليك كيف ذكر الله الإنجيذ والتوكل واليقين والإخلاص والاستغفار والتسبيح والصبر والصدق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . . إلخ، في عشرات المواضع، بل بعض هذه الأعمال بعينها ذكرت في سبعين موضعاً، ثم قارن حضور هذه القضايا في الخطابات الفكرية لتجده حضوراً شامباً خجولاً؛ أي إفلاس فكري أن تكون الأعمال التي يحبها الله ويثني بها ويجعلها مقياس الرقي والتقدم والتنوير هي في دليل القائمة لدى الخطابات الفكرية المعاصرة المخلافة لأهل السنة، يا خيبة الأعمار.
حين يتذبب قارئ القرآن كيف وصف الله القرآن بأنه
هدى وبيانات ونور فإنه يستنتج من ذلك مباشرة بأن مراد الله
من عباده في القرآن ليس لغزاً، هل يمكن أن يكون الله
 تعالى يعظم ويمحى الأولىية لتلك القضايا التي ترددها
الخطابات الفكرية ثم يكرر في القرآن غير ذلك؟ هل
القرآن يضلل الناس عن مراد الله؟! شرف الله القرآن عن
ذلك، ولذلك كان الإمام ابن تيمية يقول: "وَمَا قَصَدَ يِهُ
هُدْيَةً غَامِمًا كَالْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلْهُ اللَّهُ بِيَانًا لِلنَّاسِ يُذْكَرُ فِيهِ مِنْ
الأَوَّلَةِ مَا يَتَفَقَّعُ يِهُ النَّاسُ عَامَّةً"١، وهذا لا يعني أن الأئمة
الربانيين لا يختصهم الله بمزيد فهم للقرآن، وتكتشف لهم
دلائل وأسرار لا تنكشف لغيرهم من الناس، فالقلب
المممور بالتقوى يبصر ما لا يبصره من أغطشت عينه
النزوات، نسأل الله أن يسبله علينا ستم عفوه، وقد أشار
الإمام ابن تيمية لذلك في مواضع كثيرة من كتبه، كقوله:
"وَمِنَ المَعْلُومِ آتِهُ فِي تَفَاصِيلِ آيَاتِ الْقُرْآنِ مِنَ الْعِلْمِ
والإِيمَانِ مَا يَتَفَاصَلُ النَّاسُ فِيهِ تَفَاصِلًا لا يَنْتِجِبُ لَنَا،
والْقُرْآنِ الَّذِي يُقْرَأُ النَّاسُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ يَتَفَاصَلُونَ فِيهِ"

(1) الفتاوى: 9/211.
فَهَٰذِهِ تُفَاعَلَا عَظِيمَةٌ، وَقَدْ رَفَعَ اللَّهُ بَعْضَ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ

وَذُ رَّحْبَاتٍ(١)

وَمِن أَعْظَمِ مِفَاتِيحِ الْإِنتِفَاعِ بِالقُرْآنِ ـ أَيْضاً ـ أُنْتَجِرُ مَتْدَبِرَ الْقُرْآنِ أَنَّ جَمْهُورَ قَرَائِرَاتِ الْقُرْآنِ وَأَحِكَامُهُ عَلَى الْأُعْيَانِ وَالْأَشِيَاءِ إِنَّهَا هِيَ أَمَثَالٌ، وَمُعْنِيَ كُونَهَا أَمَثَالٌ؛ أُيَّ: «يَعْتِبَرُ بِهَا مَا كَانَ مِنْ جَنْسِهَا» بَعْدُ أَنَّ الْقُرْآنَ يَقُدِّمُ فِي الْأَصْلِ نَمَاذِجًا لَا خَصُوصِيَّاتِ أَعْيَانٍ، وَقَدْ أَشَارَ الْقُرْآنَ لَكِنْ كَثِيرًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَشْرِ

«وَإِذْ يُرَكِّبُ اللَّهُ الأَمْثَلَ تَضْرِيبَهَا لِلنَّاسِ لِيَلْهُمْ يَتَفَكَّرُوا» (الْحَشْرِ: ٢١)، وَقَوْلُهُ فِي سُورَةِ الرُّومِ «وَلَقَدْ ضَرَّبَهَا لِلنَّاسِ فِي هَذِهِ الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ» (الرُّومِ: ٨٠)، فَمَا ذَا يَرِيدُ اللَّهُ فِي

مَطَاوِي هذِهِ الْأَمْثَلَةِ الْقَرَآنية؟ هَذَا أَفْقٌ وَاِسْتَوْعَ لِلْتَدْبِيرِ.

لا شَكْ أَنَّ تَنْبِهَاتِ الْقُرْآنِ عَلَى مُرَكَّبَةِ تَدْبِيرِ الْقُرْآنِ

في صَحِبَةِ الْمُنْهِجِ والطَّرِيقِ أَنَّهَا دَافِعُ عَظِيمٌ لِلْتَدْبِيرِ، لَكِنْ ثَمَّ أَمْراً أَخَرَ عَلَى الْوَجْهِ المَقَابِلِ لِهذِهِ الْقَضِيَّةِ، وَمُعْنِيَ مِنْذَ أَنْ يِتَأَمَّلِ اللَّهُ إِنْسَانٍ يَرْفَعُ لِئِدَهُ مَنْسَوبَ الْقَلَقِ قَطَعًا، وَهُوَ أَنَّ مِنْ أَعْرَضِ عَنْ تَدْبِيرِ الْقُرْآنِ فَإِنَّ اللَّهَ قَدَرَ عَلَيْهِ أُصَلًا ذَلِكَ

(١) درَةُ التَّعَارِضُ: ٧/٤٢٧.
الانصرف لأن الله تعالى سبق في علمه أن هذا الإنسان لا
خير فيه، ولو كان في هذا المعرض خير لوفقه الله للتدبر
والانتفاع بالقرآن، وقد شرح القرآن هذا المعنى في قوله
تعالى: "ولو علم الله فيهم خيرا لسمعهم لولو أسمعهم لتوлага
وهم محيرون" (الأنفال: 32)، كلما رأى الإنسان نفسه معرضاً عن تدبر القرآن، أو معرضاً عن بعض معاني
القرآن، ثم تذكر قوله تعالى: "ولو علم الله فيهم خيرا
لاسمعهم" يتجلى ريقه من الهلع لا محالة.
على أية حال... هذا القرآن ينبع يتنافس الناس في
الارتشاف منه بقدر منازلهم، كما قال الإمام ابن تيمية:
"والقرآن مؤرّد يردّها الخلق كلهم، وكُل ينال منه على بِقَدَار
ما قَسّمَ الله لَهُ" (1).

(1) درء التعارض: 7/٤٢٧.
حين يقول لك نبي الله إن أعظم سورة في القرآن هي سورة الفاتحة، كما في صحيح البخاري عن أبي سعيد بن المعلّي، أن النبي ﷺ قال له: «الأُمَرْمَكَاتُ سُورةٌ هي أعظم السُّوَّارِ في الفُرْقَانِ، أَلْحَكَمُ إِلَّهُ رَبِّ الْعَلَّاِمِينَ» [الفاتحة: 2] هي السَّبْعَ المَكَانِي، وَالفُرْقَانُ العَظِيمُ الَّذِي أُوْتِيَهُ(1)، فهل هذه المنزلة لسورة الفاتحة منزلة اعتباطية؟ هل الله جل وعلا يختار أن تكون سورة الفاتحة أعظم وحي أوحاه طوال تاريخ النبوات هكذا دون حيائيات موضوعية أعطت هذه السورة العظيمة مرتبتها الأولوية؟ كم من الوقت منحناناً لتدبر هذه السورة العظيمة والتساؤل عن مغزى هذا التعظيم الإلهي لها؟

حين يتدبر القارئ مضامين هذه السورة فإنه لا

(1) صحيح البخاري: 4474، 17/6، الطبعة السلطانية.
يستطيع أن يكف عن نفسه الذهول كيف تاهت التيارات الفكرية المختلطة لأهل السنة في قضايا وجزئيات ومسائل جعلوها أعظم مطالبهم، وذهبوا في مطالب أخرى جاءت هذه السورة العظيمة بتقريراً، تأمل كيف بدأت هذه السورة بثلاث آيات كلها ثناء على الله، تعظيمه جل وعلا برستيته للعالمين، ثم تعظيمه جل وعلا بكمال رحمته، ثم تعظيمه جل وعلا بملكه لليوم الآخر.

القارئ يحمد الله برستيته للعالمين، ورب العالمين يجيبه فقوله: "حماَّدِيني عَبْدِي"، ثم يواصل القارئ فيشي على الله بكمال رحمته، ورب العالمين يقول: "آتى عَلَيْ عَبْدِي"، فإذا بلغ القارئ الآية الثالثة فأتيه على الله بملكه لليوم الآخر قال الله: "مَجِدَّيني عَبْدِي" (1).

كثيراً ما تسأل هل نحن حين نقرأ الفاتحة ونمر بهذه الآيات نشعر أن رب الأرض والسماوات يقول لنا ذلك، إن الله، يتحدث عننا ونحن نقرأ الفاتحة... هل تتصور؟! فبلا الله عليك تأمل في هذه الآيات الثلاث التي ذكر الله تعالى في الحديث القدسي في صحيح مسلم أنها نصف

(1) صحيح مسلم: 395، 9/2، الطبعة العاملة.
الفاتحة، حين قال: "قُسِّمْتُ الصلاة بِبَيْنِي وَبَيْنِ عِبْدِي نَصْفِينِ"، هذه الآيات الثلاث التي هي نصف الفاتحة; أي: أنها نصف أعظم سورة في القرآن، كلها حمد الله وثناء على الله وتمجيد الله.

بالله عليك تأمل في هذه الآيات الثلاث، ثم انتقل بذهنك وتذكر جدل المذاهب الفكرية المعاصرة حول قضية "ترتيب الأولويات"، سألتك بالله هل رأيت واحداً منهم يتحدث عن الثناء على الله وتقدير الله وتعظيم الله باعتباره أولوية من أولويات الإصلاح؟ بالله عليك هل رأيت أحداً منهم يتحدث عن عمارة النفوس بتمجيد الباري باعتبارها أولوية من أولويات النهضة والتقدم؟

حين أتأمل في النصف الأول من الفاتحة وأقارن دعاء أهل السنة بكلام المذاهب الفكرية يدركون الرثن الحزين لأحوال هذه المذاهب الفكرية، كيف تحيروا في أعظم المطالب، وبعضهم فيه ذكاء واطلاع، ولكن هذه الأمور بابها التوفيق الإلهي، وكتم تردت نفوس كثيرة حين تسبب إليها شيء من كبراء الثقافة وزهو الذكاء.

فإذا تجاوزت هذه الآيات الثلاث وبلغت جوهرة السورة كلها "إِيَّاكَ نَعْبَدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ"...
فتقدم المعمول (ِإِيَّاكَ) على العامل (ِنَعْبُدُ) يفيد الحصر، فلا يعبد إلا الله، والعبادة لفظ شامل، فإذا نظقت بهاته الجملة التي لا تتجاوز كلمتين (ِإِيَّاكَ نَعْبُدُ) تهاوت أمام ناظريك كل المألوفات من دون الله، تذكرت طوائف تنتسب للقبيلة وتستغني بالحسين، وهذه الآية تقول لا يستغاث بالحسين بل بآلهًا، تذكرت مذاهب تمنح حق التشريع للبرلمان، وهذه الآية تقول لا يملك حق التشريع إلا الله، تذكرت من يطاعونه هوه حتى كأنه إلهًا له كما قال تعالى: (ِفَرِّيَتْنَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ هَوَاهُ) [البقرة: 232]، وهذه الآية تقول لا يؤله إلا الله، تذكرت شخصيات تعود المنصب والمال، كما قال تعالى: (ِتَعَسَّفٌ عَبْدُ الْدِّينَارِ) [1]، وهذه الآية تقول لا يعبد إلا الله، تذكرت من يذكره للشيطان حتى كأنه يعبده كما قال تعالى: (ِيُبْشِبَ عَلَيْهِ مَنْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ لَا تُعْبَدُوا الْشَّيْطَانُ) [يس: 20] وكم قال الله عن الخليل: (ِيَقُولُ لَا تُعْبَدُ الْشَّيْطَانُ) [مرم: 44]، وهذه الآية تقول لا يذعن إلا الله، تذكرت حالات يلتفت فيها القلب إلى ثناء الناس ومديحهم، وهذه الآية تقول لك لا يراد بالعمل إلا وجه الله، تذكرت

(1) أخرجه البخاري: 2886، 4/34، الطبعة السلطانية.
نيات عزبت عن الله إلى دنيا تصيبها، وهذه الآية تقول لا يُنْتَوَى العمل إلا الله... وتذكرت وتذكرت وتذكرت، وهذه الآية العظيمة تسقط كل مطاع أو متبوع أو مألوه إلا الله.

"إِيَّاَكَ نَعْبُدُ"... هي جوهر مشروع الإصلاح، وهي قاعدة النهضة، وهي مختبر الحضارة، وهي معيار التقدم، وهي خطة التنمية، "إِيَّاَكَ نَعْبُدُ"، هي: قلب سورة الفاتحة، قلب أعظم سورة في كتاب الله، ومع ذلك، كم تاهت عن هذه السورة، بل عن هاتين الكلمتين فقط؛ أمم من الخلق، آية نكررها في اليوم عشرات المرات في كل ركعة من الفرائض والنوافل... لماذا؟ لأنها "منهج حياة"، تأمل فقط في أحد تطبيقات هذه الآية كيف يحكمها أمئة الدين في تفاصيل المسائل، يقول ابن تيمية: "والمقصود أن صاحب الزارة الشرعية" إذا قال: "إِيَّاَكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْعَبُ" كأن صادقاً؛ لأنه لم يعبده إلا الله ولم يستعين إلا به وأما صاحب الزارة البدعية فإنه عبده غير الله واستعان بغيره. فهذا بعض ما يبين أن "الفاتحة" أم القرآن(1).

(1) الفتاوى: 264/6.
وأما الاستعانة في قوله: {وَإِيَّاكَ نَسْتَبِيعُ} فهي عبادة مشمولة بقوله: {إِيَّاكَ نَعْبَدُ} ولكن الله أفردها بالذكر في هذا الموضوع من فاتحة الكتاب ليكون تنبهاً مستمرًا يسمعه المؤمن يذكّره بأن المطلوب الأكبر وهو العبادة لا يكون إلا ب«الاستعانة»، وهذا الموضوع في تعقيب العبادة بالاستعانة موضع أسهم فيه أئمة التأله والسلوك وفقه الطريق إلى الله في تأملاتهم الإيمانية.

ثم تنتقل السورة إلى النصف الثاني الذي ذكره الله في الحديث القديمي السابق، ويبدأ بعد الثناء والتوحيد، حالة الدعاء، فإن الله قال: {هَذَا لِعَبْدِي وَلَعَبْدِي مَا سَأَلَ} (1).

حسنًا.. ما الدعاء الذي اختاره الله لنا بأن ندعو به؟ مطلوبات كثيرة، وهانحن الآن في أعظم سورة، وقد بلغنا الموضوع الذي اختار الله أن يكون موضوع دعاء، والله سبحانه هو الذي اختار لنا هذا الدعاء.

أندري ما الذي اختاره الله؟ إنه «الدعاء بالهداية».. لو قيل لشخص: ادع الله

(1) صحيح مسلم: 390، 2/9، الطبعة العامرة.
كثرًا أن يهديك، لا استغرب، وشعر أن هذا أمر ثانوي، والله تعالى يختار لنا أن يكون دعاء الفاتحة هو سؤال الهدياء!

إذا كان الله سبحانه اختار أن يكون دعاء أعظم سورة في القرآن هو «سؤال الهدياء» فهذا يعني أن الضلال وشيكة خطيرة مخيفة، وإلا لم يفرد الله سؤال بهذه الخصوصية، لو كان الضلال أمرًا مستبعدًا، أو مما يجب أن لا نشغل بالخوف منه، أو يجب أن لا نكون سوداويين، لما كان الله أرحم الراحمين والذي يريد لنا الخير أكثر مما نريد له أنفسنا; يختار أن يكون دعاء الفاتحة هو طلب الهدياء، ولاحظ المقام الذي يدعو فيه المرء بالهدياء؟ إنه ليس مقام معصية، ولا مقام ضلال، بل يلح الإنسان على الله في طلب الهدياء وهو في أجل لحظات الهدياء! قائم بين يدي الله ويسأله الهدياء! فكيف بالسادر عن الله؟ فكيف بالغافل اللاهي؟ ومع ذلك يستعصم أن يسأل الله الهدياء!

في المواضع العظيمة، لا يختار من الدعاء إلا أعظمه، وأعظم الدعاء ما خاف الإنسان من ضده، فإذا كان الله اختيار لنا «تكرار طلب الهدياء» في قلب أعظم
سورة تكلم بها الله، دل هذا على أن ضد الهدية وهو الضلال أمر أقرب إلى أحدنا من عمامته التي تحيط برأسه، دل هذا على أننا نسير في حقل ألغام من الانحرافات، دل هذا على أن هذه الحياة الدنيا محموفة بكلاً ليب الباطل تلتقط الناس بناءً ويسرة، ولذلك اختار أرحام الراحمين لنا أن نسأل الله الهدية في كل ركعة من صلاتنا.

إذا رأيت كيف خص الله الهدية ها هنا بطريقة تثير القلق من الضلال، فقارنها بالبرود الفكري المصاصر تجاه قضية الهدية والضلال، وتعاملنا معها بمنطق سيبيري جامد، ليس فيه خوف ووجل وحرص على الحق، قال الإمام ابن تيمية: "وإدامتها فرض على من الدعاء الزائبة الذي يتكبر الصَّلواتِ بَلَّ الركعَاتِ فِرُضَهَا وَنَفْلُهَا هُوَ الدعاء الذي تتضمنه أم القرآن وهو قوله تعالى: "أَهْدِنَا الصُّرَاطَ السَّمِيقَ"، لأن كل عبد فُهُو مُضطَرّ دائماً إلى مقصد هذا الدعاء وهو هديَّة الصُّرَاطَ السَّمِيقَ".

وما إن يتجاوز القارئ لفظ الهدية، إلا وتبدأ أولى (الفتاوى: 299/22)
محطات الإشارة إلى "الصراع"، ذكر الله بعد ذلك مباشرة الإشارة إلى محلة الهداية وهو "الصراع"، وهذا يعني أنه صراط واحد، وليس متعددًا، هل اكتفي بذلك؟ لا. بل وصفه بأنه "مستقيم" أيضاً، فهو صراط لا يحتمل المنعطفات، فمن خرج عن هذا الصراط فقد خرج عن الإسلام، ومن دخل في هذا الصراط لكي لم يراع استقامته فهو من منحرف في أهل القبلة، فالصراط وصف للإسلام، والمستقيم وصف للسير على السنة، فالاستقامة وصف أضيق من الصراط.

حسنًا. وصف الله محلة الهداية وصفًا نظريًا بأنه "صراع مستقيم"، هل اكتفي بهذا القدر؟ لا. بل زاد بأن ربطه بتجربة بشرية معروفة فقال تعالى: "صراعاً أنعمت عليهم". قارن هذا الربط بأولئك الذين يقولون طريقة الصحابة ومن تبعهم لا تلزمهم! الله تعالى يوضح لنا الصراط بأنه صراط الذين أنعم عليهم، ومن أعظم من يدخل في هذا الوصف أصحاب النبي ﷺ، وهم لا يقولون طريقة الصحابة لا تلزمهم!

ثم تختتم هذه السورة برسم أسباب الافتراق الكبرى وآثارها، حيث يقع الصراط المستقيم بين طريقين، طريق
المغضوب عليهم، وهم الذين حصلوا العلم وأهملو العمل، وطريق الضالين، وهم الذين اجتهدوا في العمل بلا علم. وأهل الصراط المستقيم جمعوا العلم والعمل. فانظر كيف تصور هذه الفاتحه العظيمة حياة المسلم وهو يكررها كل يوم.

* * *
من الذكريات التي تنتاب خاطري بشكل عشوائي صورة تتراءى لي كثيراً من أحد مساجد رمضان، فمن المشاهد في ليالي رمضان، وخصوصاً في هذا العقد الأخير، أن المساجد صارت تتفاوت كثيراً في توقيت صلاتي التراويح والتهجد بحسب ما يرتاح له أهل كل حي ويتوافقون عليه، ولذلك فكثيراً ما تكون في منزلك قد انتهت من الصلاة بينما تسمع بعض المساجد المجاورة ما زالوا في جوف صلاتهم، وهذا ما وقع لي ذات ليلة: تكاد ذكراها تتهدج في نفسي، كنت في غرفتي الخاصة أعيد بعض الأوراق، وفي ثنايا انهماك في هذه المهام، تسرب من خلال النافذة صوت مسجد الشيخ القارئ: خالد الشارخ، وهو مسجد تتلبد عليه وفود الشباب والفتيان من الأحياء المجاورة في شرق الرياض، توقفت عن العمل، وفتحت النافذة وكانت ليلة عليلة، وكادت أذني أن تنخلع
تجاه مصدر الصوت، أظنها كانت آيات من سورة المائدة
إن لم أكن واهماً، والله إنني أكاد ألمس السكينة تتطامن
فوق كل ذرةٍ حولي، شعرت أن الهواء ليس كالهواء، وأن
السماء ليست السماء، هناك شيء ما أفلست قواميس الدنيا
أن تمدني به لأصف به ذلك الإحساس، رباه.. أي شيء
يفعله القرآن يا إلهي في النفس البشرية؟
ومما يعبر في بحر هذه الذكري أنني أتذكر وأنا صغير
أن أحد قريباتي المستمتعات كانت إذا عادت من صلاة التراويح
اتجهت إلى التلفاز تشاهد نقل صلاة التراويح من المسجد
الحرام، ولا أحيسي كم شهدت دمعاتها تتلامع في محاورها
حين تستمر أمام تلك الصفوف المهينة المطرقة حول كعبة الله
المشرفة والقرآن تتجاوز به منارات الحرم وسواه,
وفي الأيام التي تسبق دخول شهر رمضان يكثر فيها
تبادل التهاني والدعاءات (بلغنا الله وإياك رمضان، وفقنا الله
 وإياك لصيام رمضان وقيامه، أحببت أن أبارك لك قدوم
الشهر الكريم، إلخ...)، حين رأيت بعض هذه التهاني دار
في بالي أن أنظر كيف عرض الله لنا «رمضان»؟ في أي
إطار وضع الله: شهر رمضان؟ أو بمعنى آخر: ما هي هوية
رمضان في القرآن؟
حين أخذت أتأمل الآيات القرآنية التي تعرضت لرمضان في القرآن، وجدته جاء في صيغتين، صيغة الشهر الكامل (رمضان)، وجاء في صيغة جزئية أي بعض أيامه فقط، وهي (ليلة القدر).

في الصيغة التي جاء فيها بذكر الشهر الكامل (رمضان) قال الله عنه (شهر رمضان للذي أزل فيه القرآن) (البقرة: 185) فعرضه الله لنا بأنه الظرف الزمانى للقرآن.

وفي الصيغة التي أشير فيها لرمضان بصورة جزئية، وهي أحد لياليه، جاءت في موضعين، مرة باسم (ليلة القدر) ومرة باسم (الليلة المباركة)، فأما باسم ليلة القدر فيقول الله تعالى في مطلع سورة القدر: (إنما أنزلت في ليلة القدر) (القدر: 1)، وأما باسم الليلة المباركة فيقول الله تعالى في مطلع سورة الدخان: (إنما أنزلت في ليلة مباركة) (الدخان: 3).

وفي كلا الموضعين ذكر الله هذه الليلة عبر علاقتها بالقرآن! يا لربنا العجب، في المواضع التي ذكر الله فيها رمضان، بصيغة الشهر الكامل وبصيغة الليالي الجزئية، تم تقديمه في إطار علاقته بالقرآن؛ أي: إشارة لخصوصية
القرآن في رمضان أكثر من ذلك، استعرض كل شهر السنة الفاضلة، شهر الحج، أشهر الحرم، لم تجد كثافة في الإشارة للقرآن كما تجده في علاقة القرآن برمضان.

بل ثمة أمر قد يكون أشد لفتة للانتباه من ذلك، أنه ليس فقط إنزال القرآن اختيار الله له رمضان، بل حتى "مراجعة القرآن" مع النبي ﷺ اختيار الله لها رمضان! فكان جبريل ﷺ وهو أعظم الملائكة لأنه اختص بنقل كلام الله - يعقد مع النبي ﷺ مجالس مسائية في كل ليلة من رمضان لمراجعة القرآن، ففي "صحيح البخاري" عن ابن عباس أنه قال: "كان جبريل يلقى النّبي ﷺ في كل ليلة في شهر رمضان، حتى يسلع يفرض عليه رسول الله ﷺ القرآن". (١)

لماذا اختيار الله تحديداً هذا الشهر - أيضاً - لمراجعة القرآن؟ ليس في هذا إلزاماً إلى أن الساعات الرمضانية هي أشرف الأزمان وأليقها بالقرآن؟ هل هناك لفت للانتباه لخصوصية القرآن في رمضان أكثر من هذه الإشارات في اختيار توقيت نزول القرآن، واختيار توقيت مراجعته؟

(١) صحيح البخاري: ٤٩٩٧، ٦/٩٦، الطبعة السلطانية.
والحقيقة أن هذه المدارسة إذا أخذ يتخيلها الإنسان تستحوذ عليه المهابة، من يتصور؟ مجلس ليلي رمضاني لمراجعة القرآن، طرفاه أعظم إنسان «محمد بن عبد الله» وأعظم ملك «جبريل» وموضوع الدرس أعظم الكلام «كلام ملك الملوك»، يا الله.. أي هيبة تقبض على النفس بمراد تخيل ذلك، ولذلك فإن النبي ﷺ نفسه يتأثر كثيراً بهذه المدارسة القرآنية الرضانية مع جبريل، وكان الصحابة يرون أثرها أمامهم على شخصية رسول الله ﷺ حتى كان يقول ابن عباس كما في البخاري: «كان رسول الله ﷺ أُجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يُجْوَدُ فِي رَمَضَانِ، حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ فَلْتُرْسُولُ الله ﷺ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ»(1)

انظر كيف كان جود رسول الله ﷺ يزداد بمدارسته القرآن مع جبريل، إذا كان هذا رسول الله ﷺ الذي نزل عليه القرآن ومع ذلك ينفع بمدارسته، فكيف بالله عليكم ستكون حاجتنا نحن أصحاب القلوب التي أمرضتها الشهوات والشبهات...؟!

(1) صحيح البخاري: 3260، 113/4، الطبعة السلطانية.
أي حرام أن أوقع فيه بعض المتشققة أنفسهم حين أورثوا أنفسهم أنهم يعرفون القرآن وقرأوه ولا حاجة لهم إلى استمرار تلاوته وتدبره ومدارسته، فقلما في القرآن سبق أن أعلموه عليه!

 أشهر فعالية اجتماعية في شهر رمضان هي طبعة صلاة التراويح، هل سألت نفسك يومًا: ما هي الحكمة من صلاة التراويح؟

 دعني أكون شفافًا معك فالحقيقة أنه لم يسبق لي أصلاً أن تساءلت هذا السؤال، ولكن كنت مرةً أطلع فتاوى محقق العلم أبو العباس ابن تيمية فرأيته يقول:  

 "بِلِّ مِنْ أَجْلِ مَقْصُودِ التَّراوِيحِ قِرَائَةُ الْقُرْآنِ فِيهَا لِيُسْمَعَ المُسْلِمُونُ كَلَامَ اللَّهِ"، سبحان من فتح على ذلك العقل الحراني في فهم أسرار الشريعة!

 وإذا تأمل المرء النسبة بين رمضان الذي هو وقت الصوم ووقت نزول القرآن، أدرك شيئاً من النسبة بين يوم الاثنين واستحبان صيام النفل فيه، وهو ما أشار له النبي ﷺ كما في " صحيح مسلم": "سَئَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ..."
عن صوم يوم الاثنين؟ قال: "اذاك يوم ولدته فيه، ويوم بعنت≤ أو أنزل علي فيه" (1)، فلا حظ بالله عليك هذا الخيط الرفيع بين كون شهر رمضان الذي يجب صومه هو شهر نزول القرآن، ويوم الاثنين الذي يستحب صومه هو يوم نزول القرآن.

هل من المعقول أن تكون هذه التوقيات الزمنية لا تحمل دلائل شرعية ورسائل تضمنية؟

بل ومن الموافقات التاريخية العجيبة أن أشهر جهاد للسلف في القرآن كان فتنة الإمام أحمد المعروفة في مسألة القرآن، وهذه الحادثة العقدية القرآنية وقعت في رمضان كما ذكر المؤرخون قال الذهبي: "وفى رمضان: كانت محنة الإمام أحمد في القرآن، وضرب بالسياط حتى رازال عقله" (2).

فسبحان من أنزل القرآن في رمضان، وابتلى أئمة السلف بالجهاد للقرآن في رمضان! وهذا مجرد توافق تاريخي لكن فيه شيء لطيف مما تستطرقه النفس.

---

(1) صحيح مسلم: 1162، 168/3، الطبعة العامرة.
(2) سير أعلام النبلاء: 392/10، طبعة الرسالة.
وإذا حاول المرء أن يتأمل في سر العلاقة بين رمضان والقرآن، أو أزمان الصيام والقرآن، فإنه يمكن أن تكون العلاقة أن الصيام يهدب النفس البشرية فتتهيأ لاستقبال القرآن، ففي أيام الصيام تكون النفس هادئة ساكنة بسبب ترك فضول الطعام، وهذا يعني أن من أعظم ما يعين على تدبر القرآن وفهمه التثقل من الفضول، مثل: فضول الطعام، وفضول الخلطة مع الناس، وفضول النظر، وفضول السماع، وفضول تصفح الإنترنت... فكلما زالت حواجز الفضول تهاوت الحجاب بين القلب والقرآن.

ولذلك كان رمضان الذي يتقلص فيه فضول الطعام والشراب والنكاح بالصيام، ويتقلص فيه فضول الخلطة والكلام بالاعتكاف، هو شهر القرآن.
هذه ليست ورقة بحثية، ولا مقالة منظمة، ولا حتى
خاطرة أدبية، كلاً، ليست شيئاً من ذلك كله، وإنما هي:
»هم نفسي شخصي« قررت أن أروح به لأحبائي وإخواني،
فهذه التي بين يديك هي أشبه بورقة (اعتراف) تطوى في
سجلات الحزان.

هذا الإحباط النفسي الذي يجرفي ليس ولد هذه
الأيام، وإنما استولى علي منذ سنوات، لكن نفوذه مازال
يتعاظم في داخلي، صحيح أنني أحياناً كثيرة أنسى في
اكتظاظ مهام الحياة اليومية هذه القضية، لكن كلما خرج
الليل، وحانت ساعة الإخلال إلى الفراش، ووضعت
رأسى على الوسادة، وأخذت أسترجع شريط اليوم يبعث
لهيب الألم من جديد، ويضطرم جمر الإحباط حيآً
جذعاً.

شمة قضية كبرى وأولوية قصوى يجب أن أقوم بها
ومع ذلك ما زالت ساعات يومي تقتصر دون تنفيذ هذه المهمة.. لماذا تذهب السنين تلو السنين وما زالت أفشل في التنفيذ؟ لماذا تكون المهمة أمام عيني في غاية الوضوح ومع ذلك أفيض في القيام بها؟
وبزيدان الألم حين أتأمل في كثير من الناس من حولي فلا أرى فيهم إلا بعداً عن هذه القضية، إلا من رحم الله، مجالس اجتماعية أحضرها تذهب كلها بعيداً عن «الأولوية القصوى»!!
وأتصفح منتديات إنترونتية وصفحات تواصل إجتماعي (فيسبوک وتويتر) تمثل بآلاف التعليقات يومياً، وكثير منهم منهمك في أمور بعيدة عن «الأولوية القصوى» إلا من رحم الله!!
وأطالع كتبًا فكرية تقف بها دور النشر وتفرشها أمامك معارض الكتب وغالبها معصور العينين عن «الأولوية القصوى»!!
فإذا أعدت كل مساء استحضار واقعي اليوم، وواقع كثير من الناس من حولي; تنفست الحسرات وأخذت أتجرب مرارتها، وأتساءل: لم هذا كله؟ متى تنتهي هذه المأساة؟
دعني ألمثل لك كل الحكاية، في كل مرة أتأمل فيها القرآن أشعر أنني لا زلت بعيداً عن جوهر مراد الله، مركز القرآن الذي تدور حوله قضاياه مازلت أشعر بالمسافة الكبيرة بيني وبينه، يذكر الله في القرآن أموراً كثيرة، يذكر تعالى ذاته المقدسة بأوصاف الجلال الإلهية، ويذكر الله في القرآن مشاهد الزيارة من جنة ونار ومحشر ونحوها، ويذكر أخبار الأنبياء وأخبار الطغاة وأخبار الصالحين وأخبار الأمم ولا سيما بني إسرائيل وتصرفاتهم، ويذكر تشريعات عملية في العبادات والمعاملات... إلخ، وفي كل هذه القضايا ثمة حبل ناظم يربط كل هذه القضايا... تتعدد الموضوعات في القرآن لكن هذا الحبل الناظم هو هو... هذه القضية التي يدور حولها القرآن ويربط كل شيء بها هي "عمارة النفوس بالله".

كنت أتأمل أن مثلاً في أوائل المصحف، في سورة البقرة، كيف حكي الله تعالى الملائكة (أُجَعَّلُوا فيَّ من يُفسِدُ فيَّها) (البقرة: 30) ثم يربي الله فيهم تعظيم الله ورد العلم إليه (فَأَلَّا أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلُمُونَ) (البقرة: 30).

وكلئذ أتأمل بعد ذلك في سورة البقرة نفسها كيف يعد الله نعه على بني إسرائيل في ست آيات، فيها أنه...
فضلهم على العالمين، وأنه نجاهم من آل فرعون، وأنه فرق بهم البحر فأغرق آل فرعون، وأنه عفى عنهم بعد اتخاهم العجل، ثم بعد هذا التكذيب العجيب لقائمة النعم، يختم بوظيفة ذلك كله: «أَلَمْ تَشْكُروُنَّ الْبَقِيرَةَ: ۶۲}، كل هذا السياق يراد به عمارة النفوس بأن تلهج الألسنة والقلوب بذكره وشكره تعالى.

بل يذكر الله تعالى في البقرة - وأعاده في مواضع أخرى أيضاً - كيف اقتلع تعالى جبلاً من الجبال ورفعه حتى صار فوق رؤوس بني إسرائيل، لماذا؟ ليربي فيها شدة التدين والتعلق بالله، يقول الله تعالى في البقرة: «وَرَفَضَهُمْ جَبَالًا أَطْوَرَ حَتَّى مَا ءَاتِينَكُمْ يَقُوَّةً» [البقرة: ۶۲].

وقال في الأعراف: «وَإِذْ نَفَقَ اللَّهُ مِنْ جَهَلِ فَوْقَهُمْ كَانَتِ الْقُلُوبُ عُطْلَةً وَظَلَّلَ أَنُّهُ. وَرَفَضَهُمْ مَا ءَاتِينَكُمْ يَقُوَّةً» [الأعراف: ۱۷۱]. كلا هذا لتعمر النفوس بالنش_tlth بكلام الله تعالى: «خُذُوا مَا ءَاتِينَكُمْ يَقُوَّةً».

وكنت أتأمل كيف يصف القرآن حالة القلوب التي غارت ينابيع الإيمان فيها وأمحلت من التعلق بالله، حتى قارنها الله بأكثر الجمادات يبوسها في موازنة لا تخفي الأسى والرثاء. يقول الله تعالى: «فَمَّا قَسَّمَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ بَعْدٍ
دالك فهیّ كأحجارة أو أشد قسوة [البقرة: 24] ثم يكمل في تلك المقارنة المحرجة «وإن ين الهجرة لما ينفجع ينة الأنهار» حتى الحجارة تلين وتخصع وتتفجر وتتشقق وتتهبط وما المراد من هذا المثال؟ هو عمارة النفوس بالله [وإن منها لما يهبط من حسية الله].

وكنت أتأمل كيف ابتلى الله العباد بأمور توافق هواهم، وبأمور أخرى تعارضها، فآمن بعض الناس بما يوافق هواه وترك غيره، فلم يقل القرآن إن الله يشكر لهم ما آمنوا به ويغاضي عما تركوا. لا... الله يريد أن تعمر النفوس بالله فتنقاد وتخصع وتنصاع لله في كل شيء، يقول الله تعالى: {أفتخوينَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْتُرُونَ بِبَعْضِ} [البقرة: 85] ثم يقول بعدها بآيات معدودة {أفَكُمَا جَاءَكُمُ الرَّسُولُ يَا نَسْيَةُ أَنْتُمْ أَنْتُمُ أَسْتَكْبَرُونَ} [البقرة: 87]

لماذا شنع عليهم ربنا جل وعلا؟ لأن المراد شيء آخر، يختلف كثيراً عما يتصور كثير ممن تضررت عقولهم بالثقافة الغربية المادية، المراد عمارة النفس بتعظيم الله والاستسلام المطلق له.

وكنت أتأمل كيف يذكر الله النسخ في القرآن، وهو مسألة مشتركة بين أصول الفقه وعلوم القرآن، ثم يختتم
ذلك بيان دلالة هذه الظاهرة التشريعية، وهي عمارة النفوس بتعظيم القدرة الإلهية: "ما تسمع بين ءاية أو نبيها تأتي ينزل بها أو يشجعها... بسم الله الرحمن الرحيم" (البقرة: 106)، يا سبحان الله... مسألة أصولية بحثة.

وتمزج فيها القلوب بتعظيم الله، وقدرة الله.

وكانت أنامل كيف ذكر الله مسألة من مسائل شروط الصلاة وهي: استقبال القبلة، ثم تغييرها من بيت المقدس إلى الكعبة، وبرغم كونها مسألة فقهية بحثة، إلا أن القرآن ينوه أن وظيفة هذه الحادثة التاريخية كلها هي "اختبار النفوس في مدى تعظيمها واستسلامها لله؟ هذا جوهر القضية! "واما جعلنا آلهة البيت التي كنت عليها إلا لتعلم من يثبت الرسول ممن يثبت على عقابه" (البقرة: 143)، وأيات القصاص تختتم بتقوى الله" كما يقول الله تعالى: "وكلكم في القصاص حيّة يئن بالأكتب لملحقين تنتفون" (البقرة: 179)وآيات الصيام تلحق أيضاً بالتقوى في قوله تعالى: "كتب عليهم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم unsettling" (البقرة: 183)، وآيات الوصية تختتم كذلك بالتقوى في قوله تعالى: "إن ترك خيراً بيتاً إلَّا الوصية إلى ولديهنَّ والأقرير بالمعروف حقاً على السلفين" (البقرة: 180).
ولما ذكر الله مناسك الحج وأعمالها وشعائرها،
ووصل للحظة اختتام هذه المناسك وانقضائها، أعاد الأمر
مجدداً لربط النفوس بالله وإحياء حضور الله في القلوب
فإذا قصصتم من كنتم فأذكروا الله» [البقرة: 200]
واعجبنا. تنقضي المناسك وما يعني المرء فيها من
النصب، لترابط النفوس مجدداً بالله. برغم أن الحج
أصلًا مبناه على ذكر الله بالبلية والتكبر ونحوها، فالقلب
في القرآن من الله... وإلى الله.

أخذت أتآمل لما ذكر الله تعالى حكم الإبلاء في
القرآن، وذكر الله للرجال خيارين: إما أن يتربصوا أربعة
أشهر، أو أن يعزمو الطلاق، وأدركنا العجب كيف يختتم
كل خيار فقه في أوصاف العظمة الإلهية، يقول الله تعالى
في آيتين متتابعتين: «للذين يولون من ذبائحهم نصراً أربعة أشهر، فإن قام فإنه أن عمو الطلاق فإن الله سميع على عيهم» [البقرة: 226، 227]. والله شيء عجيب أن
ترابط النفس بالله بمثل هذه الكثافة في تفاصيل الأحكام
الفقهية.

وأتمنى أن يمكنني أن أذكر الله تعاينه، هل يقال
وهنا، فلم يسقط الصلاة، بل أمر الله بها حتى في تلك
الأحوال الصعبة (خفظوا على السكّوات والسكّوات الوسطى وقوموا لله قنينتين) فإن خفظتم فيجالا أو زكبا [البقرة: 238] حسناً هذا في حال الخوف فماذا سيكون في حال الأمن؟ تكمل الآية (فإذا أينتم فاذكرمو الله كما علمتم ما لم تكونوا تعلمون) [البقرة: 239]. رجعت مرة أخرى إلى بداية الآية وأخذت أتأمل المحصلة، وإذا بها في حال الأمن والخوف يجب أن يكون القلب معلقاً بالله، والله عليك أعد قراءة الآية متصلة فإن خفظتم فيجالا أو زكبا فإذا أينتم فاذكرمو الله كما علمتم ما لم تكونوا تعلمون) [البقرة: 239].

القرآن يريد النفس البشرية مشدودة الارتباط بالله جلّ وعلا في جميع الأحوال، يريد من المسلم أن يكون الله حاضراً في كل سكنة وحركة.

وكلما تأمل كيف يذكر الله النصر العسكري ليربط النفس بالنفس بالله (ولقد نصرتم الله بيدكم وأنتم أذلة فأذقو الله ملكلكم نشكرن) [آل عمران: 123].

وحتى حين ذكر الله المعاصي والخطايا إذ يقاربها ابن آدم فإن القرآن يفتح باب ذكر الله أيضاً (والذيك إذا فعلوا فنجسه أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله) [آل عمران: 135].
وذكر الله تبديلات موازين القوى عبر التاريخ، وربط الأمر - أيضا - بأن المراد اختبار عمق الإيمان والارتباط بـ الله: "وَذَٰلِكَ الْأَيَامُ تَدَافَعُهَا بَيْنَ الْمُّجَاهِدِينَ وَلَيْسَ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذُونَ مَنْ كَفَّارٍ شَهِدَاءٍ" (آل عمران: 140).

وقص الله في القرآن قصة قوم قاتلوا مع نبيهم، وحكى القرآن ثباتهم، ومن ألفط ما في ذلك السياق أنه أخبرنا بمقالتهم التي قالوها في ثنايا معركتهم، فإذا بها كلها مناجاة وتعلق بالله: "وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَّالٍ مَّعَهُ رِضٌوْنَ كَيِّمًا فَمَا وَهِنَا لَمْ أَصَابُهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعَفُوا وَمَا أَسْتَكْلَوْا وَاللَّهُ يُجَبِّبُ الصَّدِّيقِينَ" (وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أن قَالُوا رَبِّا أَغْفِر لَنَا ذُنُوبِنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرٍنَا وَتَبَيَّنَ أَقْدَامَنَا وَنَصُرَنَا عَلَى الْقُوَّمِ الْكَفِينِينَ) (آل عمران: 146، 147)، شيء مدهش والله حال أولئك القوم الذين عرضهم الله في سياق الثناء، في قلب المعركة، وتراهم يستغفرون الله من خطابهم، ويتهمون إليه، ويهرون الافتقار والتنصير وأنهم مسرفون، يا لتلك القلوب المصولة بالله.

ولما ذكر الله الجهاد شرح وظيفته وأنها اختبار ما في النفوس من تعلق بالله وإيمان به: "فَلَوْ كَنْتُمْ فِي يَوْمِ قُتْلٍ لَبَرَزَ الَّذِينَ كَتَبَ عَلَيْهِمْ القُتْلُ إِلَى مُسَاءِجِهِمْ، وَلَبِينَ اللهُ مَا فِي
ولما ذكر الله حب النفس البشرية للنصر على الأعداء، لفت الانتباه إلى المصدر الرئيسي للنصر، تأمل بالله عليك.
كيف يضخ القرآن في النفوس التعلق المستمر بالله؟ إن ينظركم الله فلا غالب لكم وإن يخدلكم فإن ذا الذي ينصركم من بعده، [آل عمران: 160]، ويقول الله تعالى: "إن نصروا الله ينصركم وثبت أقدامكم" [محمد: 7].

وكلت أنظر كيف يصوّر القرآن أوضاع الجلوس والقيام والاسترخاء، وكيف تكون النفس في كل هذه الأحوال لاهجة بذكر الله "الذين يذكرون الله فينما وقعدا وعلى جنوبهم" [آل عمران: 191]، يذكر الله وهو واقف، يذكر الله وهو جالس، يذكر الله وهو مضطجمع، أي تعلق بالله، وأي نفوس معمورة بربها أكثر من هذه الصورة المشرقة، سألك بالله وأنت تقرأ هذه الآية ألا تذكر بعض العباد المحتمين من كبار السن الذين لا تكف ألسنتهم عن تسبيح وتحميد وتکبير، هل ترى الله حكى لنا هذه الصورة عبثًا؟ أم أن الله تعالى يريد منا أن نكون هكذا.
نفوساً مملوكة بربها ومولاها لا تغفل عن استحضار عظمته وتألهه لحظة واحدة.

وحتى في المشاعر بين الزوجين إذا سارت الأمور في غير مجاريها فإن القرآن يحرك في النفس استحضار الغيبات والأبعاد الإيمانية حيث يقول الله تعالى: "إِنْ كُنْتُمْ قَوْمٌ فَسَعِيْنَ آن تُكْرِهَا شَيْئًا وَيَحْبَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا بَيْنَكُمْ [النساء: 19]، فإن بلغت أمر الزوجين إلى الشقاق الزوجي شرع التحكيم بينهما، وحتى في هذا التحكيم الزوجي فإن القرآن يلفت انتباه المنخرطين في هذه العملية إلى أن مسارات التحكيم مرتبطة بما قام في القلوب من العلاقة بالله "وَإِنَّ خَطْبَةَ شَفَاقَ بَيْنَهُمَا فَاعْبَدْنَا حُكْمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِّنْ أُهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِضَلَّالًا يَوْفِقَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنْ تُرِيدُوا أَنْ لَا يُزَوِّجُوْهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيِّمًا [النساء: 35].

ولما ذكر الله البلد الذي لا يستطيع المؤمن فيها إظهار شعائره وأمر بالهجرة إلى بلد آخر، لم يجعل الأمر مجرد هجرة من مكان جغرافي إلى آخر بل جعل القضية "هجرة إلى الله" ذاته، كما يقول الله تعالى: "وَمَن يَنْفِقْ مِنْ بَيْنِهِمَا مُهَاجِرًا إلى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يَقْتُلُهُمُ اللَّهُ فَقَدْ فَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ [النساء: 100]، فالأمر في صيغته الحسية مجرد هجرة
من بلد إلى بلد، لكنه في ميزان القرآن "هجرة إلى الله ورسوله".

ومن أعجب مواضع القرآن في رباط النفس لله وعمارتها بريها، ولا أظن أن ثمة دلالة أكثر من ذلك على هذا الأمر: صلاة الخوف حال الحرب، هذه الشعيرة تُسْكِب عندها عبارات المتصرفين، وقد تكفل القرآن ذاته بشرح صفتها، وجاءت في السنة على سبعة أوجه معروفة تفاصيلها في كتاب الفقه، بالله عليك تخيل المسلم وقد لبس لأمة الحرب، وصار على خط المواجهة، والعدو يتربص، والنفس مضطربة قلقة، والأزيز يمخر الأحذاء، والدم تحت الأرجل، ومع ذلك لم يقل الله دعوا الصلاة حتى تنتهوا، بل لم يقل: دعوا صلاة الجماعة! وإنما شرح لهم كيف يصلوا جماعة في هذه اللحظات العصيبة ("وإذا كنت فيهم فأقنعهم ليهم الصلاوة فقلنم طائفكم منهم مك واياخذوا أسلحتكم فإذا سجدوا فليكونوا من وراءكم ولتأت طائفكم أخرى لتم يصلوا مك واياخذوا جدرهم وأرسلتمهم") (النساء: 102)، هل تعرف في الدنيا كلها شاهد على حب وتعظيم الله جل وعلا للارتباط بالله واستمرار مناجاته أكثر من ذلك؟!
بل هل يوجد رجل فيه شيء من الورع وخوف الله
يهمل صلاة الجماعة وهو في حال الأمن والرفاهية وعصر
وسائل الراحة؟ وهو يرى ربه تعالى يطلب من المقاطلين
صلاة الجماعة ويشرح لهم تفاصيل صفتها بدقة، وهم
تحت احتمالات القصف والإغارة؟
هل تستيقظ نفس افترشت سجاداتها في غرفها
ومكاتبها تصلي «أحادا» لتتأمل كيف يطلب الله صلاة
الجماعة بين السيوف والسهام والدروع والخدائق؟
أتري الله يأمر المقاطل الخائف المخاطر بصلاة
الجماعة، ويشرح له صفتها في كتابه، ويعدر المضطفعين
تحت الفضائيات، والمترعين فوق مكاتب الشركات! هل
تأتي شريعة الله الموافقة للعقل بمثل ذلك؟
ومن اللطيف أن الآية التي أعقبت الآية السابقة
تكلم عن حال إتمام الصلاة، حسنًا. نحن عرفنا الآن
من الآية السابقة صفة الصلاة لحظة احتدام الصفين، فما
هو التوجيه الذي سيقدمه القرآن بعد الانقضاء من
الصلاة؟ يقول الله تعالى: «إفإا قضيتتم الصولاً فأذكروا
الله فينما وقعuestos على جبريل» (النساء: 103)، يا سبحان
ربي. .. الآن انتهى المقاتل من صلاة الجماعة، فيرشدته
القرآن لا استمرار ذكر الله، هل انتهى الأمر هاهنا؟
لا، لم ينته الأمر بعد، فقد واصلت الآية الحديث
عن انتهاء حالة الخوف، وبدء حالة الاطمئنان، ويتصل
الكلام مرة أخرى لربط النفس بالله، "إذا أطمأنتم أقيموا
الصلاة" [النساء: 102]. صارت القضية كلها الله، بالله عليك
أعد قراءة الآيتين متواصلتين "وإذا كنت فهمت فأقبلتهم
المتقنون طائفةً متحمة معاً وليأخذوا أسلحتكم إلـا سجدوا
عليكم من ورائيكم ولتأتي طائفةً أخرى لم يصروا
عليكم من ورائيكم وليأخذوا جذرهم واسلحتهم ود آل الذين كفروا أو
تقضيني على أسلحتكم وأتفرعن فيهم عليكم ميزة وحيدة ولا
جناح عليكم إن كان يكم أدى بين نظري أو كنت مرضي أن
تضعوا أسلاحكم وحدها جذركم إن الله أعد ليلكم فضائل مهيبة
إذا قضيتتم الصلاة فأذكرتم الله فيها وفعوداً وعمل
جوهركم فإذا أطمأنتم فاقمنوا الصلاة إن الصلاة كانت على
المومنين كتبنا موقوتاً [النساء: 102].
ولما ذكر الله الصلاة في سورة "طه" أشار إلى غاية
تغيب عن بال كثير من المصلين فضلاً عمن دونهم، ربما
يتحدث الواحد منا عن عظمة الصلاة في الإسلام، وأنها
أعظم ركن بعد الشهادتين، وأنها الخط الفاصل بين الكفر
والإيمان، ونحو هذا من معاني مركزية الصلاة، ولكن لماذا شرع الله الصلاة وأحبها وعظمها سبحانه؟ إنها بوابة استحضار الله وتذكره، يقول الله سبحانه: "أفيق الصلوة ليَحْكِرُونَ" [طه: 14] هكذا بكل وضوح، يقيم المسلمون الصلاة ليتذكرن الله جل وعلا، يكبروه ويسحبوه ويناجوه.

بل وحتى حين ذكر الله الجوارح المعلّمة في الصيد، لم يذكر تعليمهما مخففاً هكذا، بل يربطه بالحقيقة العقدية الإيمانية ليستمر القلب موصولاً بعظمة الله، تأمل كيف يشبه المسلم على ذلك "وَمَا عَلَّمَهُمْ مِنَ الْجُوَارِحِ مَكْتُوبًا يَا عَلِيمَ الْعَمُّوبِ" [المائدة: 4]، حتى تعليم الجوارح وكلاً الصيد يجب أن يستحضر المؤمن أنها تعليم مما علم الله، ما أشد كثافة حضور العلاقة بالله في القرآن.

وأخذ القرآن مرةً يستثير ذكريات للصحابية كاد الكفار فيها أن يفتكوا بهم، فينبش القرآن هذه الوقائع التاريخية ليرتفع بالقلوب إلى الله الذي نجاهم، يقول الله تعالى: "يَتَأثَّبُوهَا الْجِرَامَ وَأَذْكُرُوهَا يَعْمَتُ الْلَّهُ عَلَى مَكَانٍ إِذْ هُمْ قَوْمٌ يُبِتَسِطُونَ إِلَيْكُمُ الْأَمْيَةُ فَكَفِّ أَيْدِيَهُمْ عَنْهُمْ وَقَأْفَواْ الله وَعَلِيَّ الْحَقَّ قَلِيلٌ الْمُؤْنِثُونَ" [المائدة: 11]، وقد
ذكر أهل التفسير فيها عدة وقائع تدرج في ذلك كمحاولة الأعرابي غورث بن الحارث أن يقتل رسول الله ﷺ، كما في البخاري، ومثل مؤامرة اليهود لقتل رسول الله ﷺ وأصحابه فأوحى الله إليه وانكشفت المؤامرة، ونحوها من الأحداث، ليس المهم تعيين هذه الأحداث التي فشلت فيها مؤامرات الكفار ضد الرسول ﷺ والصحابية الأهم والله حين يرى متدبر القرآن كيف يفاجئ القرآن الصحابة بذكر تلك القصص ليحيى علاقة القلب بالله، فينبههم أن الله سبحانه هو الذي كف أيدي الكفار عنكم، وأنه يجب أن تتوكل القلوب عليه سبحانه.

آيات تتبش في أذهان الصحابة ذكرى أحداث وخطب أسامة فيها، لا تذكرها هذه الآيات إلا لتصعد بالقلوب إلى الخالق المفضل سبحانه، كأن هذه الآيات تقول: انبهو إنا سلمتكم في تلك الأحداث ليست أمراً عابراً، بل هو فضل من الله ورحمة، فاذكروا هذا ولا تنسوه، وليكن منكم على بال، ولتعشه القلوب وتلهج بشكر الله الألسنة والجوارح، انظر كيف تكون وظيفة علم السير والمغازي في كتاب الله، وقارنها بنمط تعاملا معها وذكر القرآن للصحابة بغزواتهم في سورة
الأنفال يشبه قوله في سورة إبراهيم عن موسى: «وَلَمَّا أُرْسِلْتُنَا مُوسِىً مَّلَكًا وَبَشَرًا مَّنْ يَنْتَهُونَ إِلَّا إِلَّاهَيْنِ» [٦٥] فقال موسى مستجيبًا في الآية التي تلتها: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُروْنَ يَعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَنَّكُمْ مِنَ الْأَطْلُومِ » [٦٦].

ولما ذكر الله تعالى قصة موسى إبتغى أمر قومه بدخول الأرض المقدسة والتي ذكر بعض أهل التفسير أنها الطرور وما حولها، فتخاذل قوم موسى واعتدوا بأن فيها قوماً جبارين لديهم إمكانيات لا تستطيع مقاومتها، وفي هذه اللحظة وقف رجلان من قوم موسى موقف الشجاعة مستجيبين لأمر موسى، ونبهوا قومهم أنهم بمجرد الدخول على الجبارين فسينهزمون بإذن الله، هذا الرجلان البطلان لم يذكرهما الله في كتابه وينسب الفضل لهما، بل نبه تعالى أن موقعهم البطولي إنما له خلفيات أخرى، والله عليك تتبع نمط القرآن في عرض ذلك، يقول الله حاكياً خطاب موسى: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقْوِيْنَ اذْكُروْنَ يَعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيْكُمْ أَنْبِيَاءً وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَأَنتُمْ مَا لَمْ يَوْؤَّنَ أَحَدًا مِّنَ الْكَانِينَ يَقْوِيْنَ أَدْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ».
لعلك لاحظت الأمر، وكيف يلح القرآن على إبراز خلفيات العلاقة بالله، فهذا الرجال لم يقفوا هذا الموقف الصواب إلا لأنهما يخافا من الله، وقد أنعم الله عليهما بمقامات الإيمان والدنيانة، وحتى وصيتهما لقومهما كانت «وَعَلَىٰ لَيْثَ فِي آخِرِهِمَا» والتوكل عن أدق مقامات تعلق القلب بالله، بل إن التوكل هو لحظة التعلق بالله فعلًا.

هذه الوقائع والحوارات بين موسى ﷺ وقومه لا يمكن أن تخرج منها بمبدأ جوهري إلا مركزية التعلق بالله، فموسى ﷺ يذكرونه بالله لكي يدخلوا الأرض المقدسة، وبطلا المشهد إنما وقفها هذا الموقف لأن الله أنعم عليهم بمقامات الإيمان، ونصيحتهما الختامية هي: التوكل على الله، القصة كلها إيمان في إيمان.

ثم يحدثك القرآن عن ظاهرة المصائب والأضرار
التي تصيب الإنسان في حياته الشخصية، وبالرغم من أن الله شرع لنا اتخاذ الأسباب، كالأدوية للشفاء من المرض، والتماس الرزق لرفع الفقر، إلا أن القرآن يكشف دائرة الضوء على أمر آخر أهم وهو أن يرتبط الفوائد بالله حتى وهو يصارع هذه البلاءات، تأمل كيف يصوغ القرآن هذا المعنى، يقول الله: « وإن سَمَسْكَ اللَّهُ يُصْرِفُ فَلا كَافِٰشَكَ اللَّهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُسَمِسْكَ يُحِبَّرُ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَبِيرٌ » [الأعام: 17]، ويقول ربنا في موضوع آخر مشابه « وَإِن يُسَمِسْكَ اللَّهُ يُصْرِفُ فَلا حَكَائِشَ اللَّهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُسَمِسْكَ يُحِبَّرُ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَبِيرٌ » [بركاء: 6]، لعلك لمحت معنى آخر، وهو أن الآيتين كليهما لم يتحدثا فقط عن أن كافش الضر هو الله، بل المدهش أنهما أشارتا كذلك إلى أن من مسّك بهذا الضر هو الله سبحانه أيضاً!

فحين يتعمّق المؤمن في أسرار هذه الآيات فيمتلىء قلبه باليقين بأن من مسّه بالفقر أو المرض هو الله، وأن من سيفرع هذا الضر، فيغنيه ويعافيته؛ هو الله أيضاً، فصار مبتدأ الأمر ومتهامه من الله وإلى الله، فماذا بقي في القلب لغير الله!

الله وحده قادر هو الذي أوقعه، والله وحده قادر هو
الذي سيرفعه! هكذا يتبحر المؤمن في حقائق العلم بالله والإيمان به وعمارة النفس بمهابته سبحانه.

ثم ينتقل القرآن إلى دائرة أوسع من دائرة (الفرد) وهمومه الشخصية، إلى دائرة (المجتمع) وقضايا الشأن العام وما تكابده من أزمات، ماذا يريد الله جلّ وباعبتقدير هذه الأزمات المجتمعية؟ قطعاً هناك حكمة إلهية في تقدير هذه المصائب المجتمعية، فما هي يا ترى؟ إنها ليست شيئاً آخر غير تلك الحقيقة الكبرى الناظمة للقرآن والتي رأيناها تسري في شرايين الشواهد والنماذج السابقة، بكل وضوح وباشرة يكشف الله سبحانه عن حكمته في تقدير هذه الأزمات المجتمعية يقول: "ولقد أرسلنا إلينا أضلاع من قبلك فأخذتهم بالأساء والضراء أهلكهم بضرعون فلولا إذ جاءهم باسنا تضرعون ولكن فستقطعهم" [الأعمال: 42، 43]، ويحدد رابنا في موضع آخر مشابه ذات الخلفية "وما أرسلنا في قرية من ذي دين إلا أخذنا أهلها بالأساء والضراء لعلهم يضرعون" [الأعراف: 64]، وتضيف آية أخرى مقاماً إيمانياً بديعاً مشابهًا للتضرع وهو "الاستكانة لله" يصف الله: "ولقد أخذتهم بالمداف فما استكانوا ليهم وما يضرعون" [المؤمنون: 72].
هذه التغييرات التي تطرأ على الفرد والمجتمع بشكل عام يريد بها الله أن نعود إليه كما يقول الله: ﴿وَبِكُلِّ نَفْسٍ ذَلِكَ وَاكْنِ بِمَآ أَنْزَلْنَاهُ مُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: 168)

هذا هو الدرس الأساسي في ظاهرة المصائب الجالية للهموم الفردية والمجتمعية، كالفقر والمرض والأزمات الاقتصادية والكوارث الطبيعية، يريد الله جل وعلا أن تكون جسرًا إليه سبحانه، يريد الله بها أن توقظ قلوبنا فتستنكر الله، وتتضرع له سبحانه، وتتعلق به جل وعلا، قارن هذا بنمط تعاملنا مع هذه الظواهر يستنكر لك بعدنا عن الحقيقة الكبرى الناظمة للقرآن.

ومن التعابير الشمولية التي استعملها القرآن لتربية هذه الحقيقة الكبرى في النفوس قول الله سبحانه في خواتيم سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاةٍ وَشْكُرٍ وَحَمَدَةٌ عَلَى الَّذِينَ أَنْعَمْنَ عَلَيْهِمْ ﴾ (الأنعام: 122)، فانظر كيف شملت هذه الآية أصول العبادات، والحياة، والممات؛ وجعلت كل ذلك سبحانه، قد يعرف الكثير من الناس اليوم كيف يصلي الله، وكيف يحج الله، لكن القليل من الناس يدرك كيف يحيا حياته الله، وكيف يموت الله؟! وهذه الآية العظيمة تزكي النفس بهذا المقام العظيم الذي هو لب القرآن.
ويحدثنا مطلع سورة الأنفال عن إرهاصلات معركة بدر، ثم تفاعلاتها وتطوراتها بين الاستياء على قافلة قريش أو المواجهة العسكرية، حتى يصل السياق إلى النصر العظيم الذي حققه المسلمون في قتالهم لجيش الكفار وسحقهم، أتدرى أين العجب في ذلك كله، أن القرآن بعد شرح هذه الأحداث المتلاحقة يعقب تعقيباً مدهشاً في ترقب التعلق بالله ونشبة الفضل له سبحانه، بالله عليك تأمل هذا التعقيب القرآني على غزوة بدر: "فَلَمْ تَفَتَّلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ فَتَلَّهُمْ وَمَا رَمَيتَ إِذْ رَمَيتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَيَهُمْ" (الأنفال: 17)، يا الله العجب. فالصحابنة المجاهدون هم الذين قاتلوا، والنبي ﷺ هو الذي رمي التراب وقال: "شاهد الوجوه"، ومع ذلك يقول القرآن: لا، لست أنتم الذين قتلتموه، ولا أنت يا رسول الله الذي رميته، ولكنه الله سبحانه هو الذي قتلهم، وهو الذي رمي، والمعنى أن الله هو الذي أظهركم بهم، لكن من شدة نسبة الفضل إلى الله نسب إليه الفعل ذاته! فانظر كيف تشرع القلوب إلى السماء وتخلص من حبال التفاعل إلى الأرض.

وإذا تأمل متدبر القرآن هذه الآية "وَمَا رَمَيتَ إِذْ"
في سورة الأنفال آية أخرى، ي قول الله فيها: «فَنَّظَرْنَاهُمْ يُصِبْبُهُمُ اللَّهُ إِلَى النَّارِ» (الأنفال: 14). فانظر كيف نسب السبب لأيدي الصحابة، ونسب الأثر الله! فصحيح أنكم أنتم الذين تقاتلون لكن الله هو الذي يعذبهم بذلك!

لا يتوقف مشهد تعليق القلوب بالله في المجتمع المسلم، بل إن القرآن يوجه قارئه إلى تربية التعلق بالله في نفوس «الأسرى»... إنهم الأسرى الذين هم مجموعة من الكفار المحاربين الذين تعذر عليهم إتمام مهمتهم الخبيثة! ومع ذلك يحظى كتاب الله على تفقيههم في معاني «أعمال القلوب» يقول الله في سورة الأنفال: «ثَمَّ كُلُّ أَوْلَىٰ قُلُوبٍ لَّهُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ عَفُوٌّ رَحِيمٌ» (الأنفال: 70)،
يجب أن يدرك الأسرى أن الموضوع كله متعلق بما في القلوب!

ولما ذكر الله قصة الثلاثة الذين خلقوا وهم كعب بن مالك وصاحبه، وهي مروية بطولها في صحيح البخاري، شرحت الآيات حالة استغلاقهم والغم الذي أصاب هؤلاء الثلاثة، ثم وصلت الآية إلى جوهرها وهو "الحالة الإيمانية" التي يحبها الله سبحانه، وثمّها منهم، وجعلتها الآية ختام المشهد، يقول الله سبحانه: "وَضَعَ الْقَلْبَاتُ
الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا صَافَتَ عَلَيْهِمْ الأَرْضُ يَمَا رَحَتَ وَضَمَتْ عَلَيْهِمَ عَفْوَهُمْ وَفَتَنَا أنْ لَا مَلِكَةَ مِنْ أَلَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ نُمَّرُ ذِبَابٌ عَلَيْهِمْ لِيَسْتَبْنْعَا إِنَّ أَلَّهَ هُوَ النُّزُوُّ اللَّهُ الْقَرِينُ" [التوبة: 118]، أرأيت؟! ما أبدع عرض الآية لهذا المقام الإيماني في سياق تفاعلاتهم والغم، فبعد أن ضاقت عليهم الخارج "الأرض بما رحبت" وضاقت الداخل "وضاقت عليهم أنفسهم" تصل الآية إلى ذروة الإيمان "وظنّوا أن لا ملّا خاً من الله إلا إليه".

ليس العجب فقط أنهم تعلقوا بالله... بل العجب إشارة الآية إلى المبدأ والمنتهى، يعني إشارتها إلى أنه لا نجاة من الله إلا إلى الله! فلله ها هنا هو المخوف، والله
نفسه هو الملاذا! هذه هي القلوب التي يحبها الله.

ومما يدلّك على أن الله يريد من العبد أن يبقى قلبه متضرعاً مستغيثاً في حال الأزمة، وبعد تجاوزها، وأنه ليس من الأدب أن تدعوا الله أثناء الأزمة ثم تغفل عن التعلق بالله بعد تحسن الأحوال، يصف الله هذا المشهد بقوله في سورة يونس: "وإذا مس الإنسان أضر، دعنا له جليله، أو قاعداً أو قابلاً فلما كفنسا عنه ضره، سر كأن لم يدعنا إلى شيء مسناً. كذلك دين إسرائيل ما كانا يعملون" [يونس: 12]، تأمل كيف وصفت الآية الضجر الذي يصيب الإنسان أثناء المصيبة فيدعوا الله في كل أحواله قليماً وقاعدًا ومستلقياً، ثم إذا كشف الله مصيته غفل ونسي تلك اللحظات التي كان ينادي فيها ربه، عزت عنى بالذكرى تلك الابتهاجات إلى الله حال الكرب.

وهذا المشهد الاليم الذي ذكرته سورة يونس شرحته آيات أخرى لتؤكد أهمية الموضوع، يقول الله تعالى في سورة الزمر: "وإذا مس الإنسان أضر، دعنا له جليله، ونبع إلى الله من قبل" [الزمر: 8]، ويعتبر الله في سورة فصلت: "وإذا أمضى على الإنسان أعرض ونكاً بجانبه، وإذا مسسه أنهمر فدُعو عريض" [فصلت: 50]،
وَاللهِ إِنِّي أَشْعِرُ بِالخَجْلِ، وَأَنَا أَعْلِقُ عَلَى هَذِهِ الآيَاتِ! مَا أَكْثَرُ مَا يَلْحَوُ عَلَى رَبِّي إِذَا عَرَضَتْ لَهُ حَاجَةً، فَإِذَا تَحْقَقَتْ حَاجَتُهُ وَحَصَّلَ غَرَضِهِ طَارِتُ بِهِ الْفُرْحَةُ فَأَنْسَتْهُ التَّبْتُلُ بِبِينِي يَدِي رَبِّي شَكْراً وَحَمَدَةً وَثَنًاءً، أَلِيسُ هَذَا هُوَ الْمَرْؤُوَرُ كَأَنْ لَمْ يَدْعِي اللَّهُ إِلَى ضَرِّ مَسِهِ؟ أَلِيسُ هَذَا هُوَ نَسْيَانٌ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلِ؟ أَلِيسُ هَذَا هُوَ الإِعْرَاضُ وَالْتَنَأَيُّ بَعْدَ ذَلِكَ "الْدَّعَاءِ الْعَرِيضَ"؟ يَا رَبِّ عَفْوُكَ وَسَتَرَكَ.

وَالْمَرَادُ أَنَّهُ إِذَا تَأَمَّلَ مَتَدَبِّرُ الْقُرْآنِ كَيْفَ كَرَّ اللَّهُ فِي تَصْوِيرَاتٍ مَتَعَدَّةٍ ذِمَّ مِنْ يَدْعُوا اللَّهَ فِي حَالِ الْضَّرِّ، وَيَغْفِلُ فِي حَالِ الْعَافِيَةِ؛ عَلَمَ أَنَّ اللَّهَ يَرْيَدُ أَنْ يَكُونَ الْقَلْبُ مَعْلُقاً بِاللَّهِ فِي كُلِّ حَالِ.

سَاوَّلِكَ يَا أَخِي الغُلْيَاءِ قَارِئُ هَذِهِ الْسَّطْوَرُ سَؤَالاً تَبْحَبُ بِهِ هَذِهِ الْكُلُّمَاتِ المَكْتُوبَةِ، وَلَكِنَّ اجْعَلِ جُوَابِهِ فِي صَدْرِكَ، اجْعَلِهَا مَنَاجِعَةً لأَحْبَاءِ بَيْنِي بَيْنِكَ، سَؤَالُ هُوَ: **بَاللَّهِ عَلِيَّمُ أَلَمْ يَمُرَّ بِكَ لِحَظَةٍ رَكِبَتْ فِيهَا "الْطَّائِرَةُ" مَسافِراً إِلَى سَيَاحَةٍ أَوْ تَجَارَةٍ أَوْ غَيْرَهَا، وَكَانَتِ الأَمْوَرُ عَلَىٰ مَا يَرَى مَّثَلَّهُ، ثُمَّ وَأَنْتُ فِي جُوْفِ السَّمَاءِ ارْتَدَّتْ الطَّائِرَةُ لَظُروفٍ جَوِيَّةٍ، أَوْ رَأَيْتُ طَاقِمَ الطَّائِرَةِ يَلْهَوُنَّ كَأَنَّمَا يَخْفُونُ**
أمراً خطراً، فكيف كانت مشاعرك في تلك الحالة؟ ألم تدع الله وجلًا بالسلامة، ألم يركض أمام عينيك سريعاً شريط الخطايا والمعاصي؟ ألم يستحذ عليه إحساس بأنك إن سلمت ستتوب بعد أن رأيت الموت؟ مررت بك هذه اللحظة؟

إذن اقرأ كيف يصور الله ذات المشهد لكن على وسيلة مواصلات أخرى مشابهة، وتأمل كيف يعاتبنا على ذلك، يقول الله في سورة يونس: «هَلِئَ إِذَا كَانُكِنَّ فِي الْفَلكِ وَجَرَّنِينَ بِهِمْ بَيْنَ طَيْبَيْنِ وَفَنَّوْنِيْنَ بِهَا جَاهِزَةُ رَيْحُ عَكَافِ فِي جَبَهَتِهِمْ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وُضِعْتُمْ أَنْتُمْ أُحْيَىٰ يُهْمِدُ دَعْوَاتِ اللهِ مُخْلَصِينَ لَهُ الْأَلِيِّينَ لَنَ أَجْنِبْنَا مِنْ هَذِهِ لَا نَكُونُ مِنَ الشَّكِيرِينَ أَنْجِبُهُمْ إِذَا هُمْ بَدْعُونَ فِي الْأَرْضِ يُغَيِّرُ الأَمْسَى كَيْ أُقُلْ لَهُمْ أَنَّا نَآتَاهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعِيدًا عَلَى أَنْفَسَكُمْ مَثْعَبُ الحَكِيمَةِ الْأَلِيِّيَةِ لَا نُعْلُو إِلَيْنَا سَمَحَكُمْ فَعُودُكُمْ يَمَآ كَنَّرْتُ بِتَمْتَعُونَ» [يونس: 22، 32]، يا بلاغة القرآن... والله ما زال هذا المشهد يتكرر منذ أنزل الله هذه الآيات إلى يوم الناس هذا.

وهذا المشهد المذكور في سورة يونس شرحته آية أخرى مشابهة في سورة الإسراء، وكشفت آية الإسراء جهل العقل البشري، وكيف يغلب عن أخطار أخرى حتى
لو سلم في رحلته التي نجا فيها، يقول الله مرة أخرى عن وسائل النقل: 

وَإِذَا مُسَكَّنُ الْبُرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مِنْ تَدُوعٍ إِلَّا َٰيٓاَمَّةٌ فَلِمَا تَذْكُرُ إِلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ وَكَانَ الْإِنسَانَ كَفُورًا ١٧٦ أَفَلَمْ يَنَبِّئَكُم بِمَا ذَيَّنَتْهُ ۖ كَانَ خُطِيفَةً مِّنْ الْبَرِّ ۖ وَقَدْ أَنْزَلَهُ عَلَيْهِم مِّنْ الْرَّجْحِ فَغَضَبْنَاهُم بِمَا كَرَّهُمْ ﴿۵۸﴾ [الأسراء: 26 - 69]، تأمل كيف تشير الآية إلى جهل الإنسان حيث يظن أنه إذا وصل البر أمين ولذلك يغفل! والقرآن ينبهه أنه حتى لو نزل على الأرض فقد يكون تحت خطر عقبي أشد كالخسف بالأرض كما حصل لقارةون، أو الرمي بالحصباء كما حصل لقرية سدوم، ثم ينبه القرآن تنبيهاً أعلم وهو أنه ما ينجب نجوت هذه المرة من الخطر ووصلت البر، قد تعود مرة أخرى إلى وسيلة النقل ذاتها فتهلك هلاكاً أشد حين تقسم الريح مراكباً.

وتشير آية أخرى إلى تفاوت الناس بعد زوال لحظة الخطر على وسيلة النقل: 

وَإِذَا غَشِيَّهُم مَّوْجٌ كَأَظُلَّلَ دَعُوَّاً اللَّهِ مُحِيطِمًا لِّلَّذِينَ قَالُوا لَتَجْنُونَهُم إِلَى الْبَرِّ فَيُبِينُهُم مَّكَانَ هُمْ وَمَا يَجْعَلُ إِلَّا ١٨٣ َٰلَّيْسَنَّ إِلَّا كُلُّ خَاتِمٌ كَفُورٌ ١٨٤﴾ [القصارى: 22]، هذه...
الصورة التي يكررها القرآن عن السفر بالسفن واليخوت
إنقلها بحذافيرها إلى وسيلة نقل مشابهة كالطارئة أو
القطارات أو السيارات وتأمل كيف يكون الإنسان فيها
قلقاً، وخصوصاً إذا مر بظروف طبيعية، كرياح تثير
الاضطراب، ثم إذا نزل على الأرض نسي استكانته
وتضرعه وعزمته على الاستقامة، تذكر هذه الصورة التي
نمر بها وأعد قراءة آية يونس وآية الإسراء السابقتين
تنكشف لك من معاني الإيمان والتعلق بالله ما لم يخطر
بالكل، والمقصود أن ينظر متدبر القرآن كيف يريد الله
قلوباً تستديم التعلق به في حال الخطر والسلامة.

إنه الحبل الناظم والحقيقة الكبرى في القرآن، وهو
استمرار حركة القلب بالإيمان بالله والتعلق به سبحانه.
ربما لو جلست مجلساً وسألت من فيه ما هو
تعرف: الصحبة الصالحة؟
لربما طافت بك التعريفات في صفات دنيوية،
وخصوصاً بعد غلبة المنظور الغربي لمفهوم "تطوير الذات".
فصارت تسري في مفاصل هذه الكتب المعايير المادية في
النظرية للحياة والنجاح. لكن متدبر القرآن يجد في سورة
الكهف تعريفاً مدهشاً للصحبة الصالحة، يقول الله - تبارك
وطمعي - لنبيك: "واصلتَ نسخة مع الأئمة يذبحونهم بالמזدوج والأثني" (الكهف: 28)، سألتك البالي الذي حلقك هل تجد اليوم في خطابتنا الفكرية والنبووية من يعرف الشخصية المتميزة بهذا التعريف؟

انظر كيف تحدد سورة الكهف «خاصة» الشخصية المتميزة، إنه النبي: "يذبحوا ربهم بالغداة والعشي"، وإححاله من زمان صرنا نستحي فيه من حقائق القرآن.

ولما كلف الله موسى بالرسالة، طلب موسى من الله أن يجعل له وزيراً يعينه على مهمة الرسالة وهو أخوه هارون، لكن ما هو المقصود الأبعد من هذا التعاون والتعاضد بين الأخوين؟ شاهد كيف يشرح موسى وظيفة الاستعانة بأخيه هارون في سورة طه: "أو أجعل لي في وزيراً من أهلتي هدوري أحني؛ أشدده بيد أزرى وأشركت في أمرى كن سبحك كثيراً وذكرك كثيراً" (طه: 29 - 32).

أظنك لاحظت هذا الحضور العجيب لـ"ذكر الله" في بنية الرسالة، موسى يقول لربه اجعل معي هارون كن سبحك وذكرك كثيراً من أجل التسبيح والذكر.

هل انهى الأمر عند هذا الحد؟ لا، بل إن الله تعالى يرسل موسى وهارون إلى فرعون و居室هما مرة أخرى...

ثم يتحدث القرآن في سورة الحج عن طريقة تلقي المؤمن لآيات الوحي، وأنه ليس المطلوب فقط تنفيذ أحكام القرآن، بل لا بد أن يقوم في القلب معنى آخر يظهر به «ذل العبودية»، وهو طأطأة القلب ورفته.
فور تلقيه القرآن، يقول الله: "ولعلمت الذين أوتوا العلم أنتم أحق من رأيت فقوموا به فحجت الله قلوبهم" [الحج: 45]، وقد ذكر بعض أهل التفسير أن معنى الإ którą ها هما:

«أي: ترق للقرآن قلوبهم».

ثم ينتقل لنا المسار إلى سورة «المؤمنون»، وفيها مشهد بديع لعمارة النفوس بالله، ذلك أن كثيراً من الناس يتصور أن المؤمن يجب أن يخاف من الله حال «المعصية»، أما حال «الطاعة» فتذهب كثير من العقول عن مقام الوجل من الله، لكن ميزان القرآن مختلف، يختلف جذريًا، إنه يريد شعب الإيمان مستوفزة متلهفة في كافة الأحوال، مشدودة إلى خالقتها، تأمل كيف يصوّر القرآن المؤمن وهو في لحظة العمل الصالح: "والذين يؤمنون ما عانوا وقابلهما وجلة أتتهم إلى رحمه ورجمون" [المؤمنون: 67]، يمد يده بالصدقة وقلبه يرتفع من الله! بالله هل رأيت إقبالاً على الله وذهولاً عما سواء أشد من ذلك؟! فإذا كان هذا هو المطلوب القرآني حال «الطاعة» فكيف يكون حال «الخطيئة»؟!

وفي سورة النور لما ذكر الله الأنشطة التجارية لم يتحدث عن أهميتها، أو فنونها، بل التحذير من أن تشغل القلب عن الانكباب على الله «يجال لا تلهيم تجارة ولا يع».
عن ذكر الله [النور: 37] فإذا كان هذا حالهم أثناء التجارة المنكهة فكيف يكون أثناء الفراق؟
ومن المعاني القرآنية التي نبهت إلى تعلق القلب بالله وانصرافه عما سواه مفهوم "إقامة الوجه للدين" وإسلام الوجه لله. وهي تعابير لها دلالاتها القلبية العميقة.
تأمل هذه الطافقة من الآيات: يقول الله: "فأفاصر وجهك للدين حنيفًا" [بونس: 105] وقائل الله: "فأفاصر وجهك للدين حنيفًا" [الروم: 33]، ويقول سبحانه: "فأنا هماذم وليم ربي لئن كنت إياكم يوم لا يد من آمن الله قاتم" [الروم: 43]، ويقول أيضاً: "ثم يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقل استمسك بالغفور والغنيم" [لفمان: 22]. وقد قرأت لعدد من أهل العلم أن أكثر أمة ردده القرآن بعد التوحيد ما هو؟ ورأيتهم ذكروا أموراً لكوني اعتبرتها غير دقيقة، وأنا الذي رأيته شخصياً فلا أعرف مطلوباً عملياً ردده القرآن بعد التوحيد مثل موضع "ذكر الله" سواء كلام القرآن عن "جنس الذكر" كحديث القرآن عن الذكرى عند الله كثيراً والذاكرات، والذكر قائمآ وقاعدآ ومضجعاً، وذكر الله آناء الليل والنهار، وتحريم أمور لأنها تصد عن ذكر الله والتحذير من قسوة القلوب من ذكر الله، وخشوع القلب
لذكر الله، ونحو هذه المعاني التي تتحدث عن جنس الذكر، أو كلام القرآن عن "آحاد الذكر" مثل التسبيح والتحميد والتهليل والتكرير ونحوها، كتسبيح الكائنات، واستفتاح السور بالحمد، ونحوها. هذا هو أكثر مطلوب عملي رأيته في كتاب الله، أما المطلوب الخبري بعد التوحيد فربما كان "المعاد" والله أعلم.

هذه الظاهرة في القرآن - أعني ظاهرة كثرة الحديث عن ذكر الله - لا أظنه سيخلاص فيها من تأملها بإذن الله، ويستطيع متبدل للقرآن ملاحظتها بسهولة، وإنما الشأن في تفسير هذا الموضوع، أو على الأقل محاولة إدراك العلاقة بين "ذكر الله" و"القلب البشري". فما العلاقة بين الذكر والقلب يا ترى؟ هناك آياتان عظيمتان في كتاب الله أشارتا إلى سر هذه العلاقة، يقول الله في سورة الأنفال: "إِنَّا رَوِيَّتَ الْآيَاتِ لِيَذَّكَّرَ بِهَا أَنظُرُوْلُهُمْ (الأنفال: 2)، ويقول الله في سورة الحج: "وَايَدَّعُ الْمُكَحَّلِينَ إِذَا ذَكَّرَ أَنْ يَتُبُّوْلُهُمْ (الحج: 34، 35)، لا أظنهما فاتك هذا السر الذي نبهت إليه الآياتان، انظر كيف يربط القرآن بين الذكر وحركة القلب "إذا ذَكَّرَ أَنْ يَتُبُّوْلُهُمْ". والله عليكم ألا تدهشك هذه العلاقة؟
على أية حال... تلاحظ أننا ابتدأنا هذه الخواطر
بمشاهد من السبع الطوال أول المصحف، ثم انتقلنا إلى
مشاهد أخرى من أواسط المصحف، دعنا نغادر الآن إلى
مشاهد مماثلة من خواتيم القرآن وقصاص السور، من
النماذج الملفتة في أواخر القرآن سورة تحدث الله فيها عن
مشاعر المؤمن بعد أن يلقي عنه عنان الجهاد فيحقق
النصر، لقد كان القرآن طوال حياة النبي صلى الله عليه يعلق القلوب
باليت لتنصر، فماذا بعد النصر؟ يقول الله: {إِذَا جَآتَ
نصرُ اللَّهِ وَالقُفْحِ وَزَوَّاتُ الْأَكْبَارِ يَعْلَمُونَ في دِينِ اللَّهِ
فَسَيْخُ جَهَدٍ يَدِيَّكَ وَانْتَفَعَّا إِذَا كَانَ نَوْبَاتٌ}.
(النصر: 1 - 3).

ومن أساليب القرآن العجيبة في وصل النفوس
بخلافها أن القرآن لا يكتفي بذكر التعلق بالله، بل ينوع
أسماءه سبحانه في الموضوع الواحد لتتعدد موارد التعلق!

انظر كيف يتقلب الفؤاد في مدارج العبودية وهو
يسمع {فَلَ آوْعُدُ ْيَرْبِي الْأَكْبَارِ ْمَلِكُ الْأَكْبَارِ ْإِلَهُ
الْأَكْبَارِ} [الناس: 1 - 3]، يأمرنا الله أن نلجأ ونستعذ
به بموجب ربوبية الله للناس {فَلَ آوْعُدُ ْيَرْبِي الْأَكْبَارِ}،
فإذا تشع القلب بذلك، انفتح عليه مشهد ملك الله العظيم
للناس «كُلُّ أَيْدِيٍّ كَأَيْدِيّ ٱلَّذِيْنَ يَفْتَرِينَ»، فيزداد تمسك القلب واستعاذته بمقتضى ملكية الله، ثم يكشف للقلب موردًا آخر وهو ألوهية الله للناس «إِنَّ أَيْدِيَنَّى وَأَيْدِيُّهُمْ وَلَا يَكُونُ لَا يَكُونُ»، فلا تزال جبال الاستعاذة تشد قلب متذبذب القرآن إلى السماء، بمقتضيات وموارد وموجبات تتتكشف له من معاني الأسماء الإلهية العظيمة.

وهمذدا يريد القرآن من مفتتحه إلى مختتمته - أن تكون قلوب العباد، وهذه مجرد نماذج ومنتخبات التقطتها من أجزاء القرآن، وتركت أضعاف أضعافها لثلا يطول الحديث وينشر الموضوع، ويستطيع متذبذب القرآن أن يلاحظ هذه القضية وهي "عمارة النفس بالله" في كل آية من كتاب الله، فما من آية من آيات القرآن إلا وفي جوفها معارج تسري بالقلوب إلى مقلب القلوب.

وقد انعكست هذه الهدایات القرآنية على تعاليم السيد ولد آدم، فنهبت أحاديث النبي عليه عليه انكباب القلوب على الله جل وعلا، وأظنه من أكثرها لفتًا للانتباه الحديث الشهير الذي رواه البخاري ومسلم عن السبعة اللذين يفرون بظل الله يوم لا ظلل إلا ظله، وذكر منهم: "وَرَجَلٌ قَلْبَهُ مَعَلَقٌ فِي الْمَساجِدِ، إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعْوَدَ"
إليه" (1)， شاهد كيف يربي النبي في نفوس أصحابه التعلق بالمسجد، وقارنه ببعض المنتسبين للدعوة الذي صاروا يعلنون الناس بما هو خارج المسجد!
قارن الخطاب النبوي بمنتسبين للدعوة صاروا من الزاهدين في سكينة المساجد، المولعين بصخب الدنيا، وهذا المعنى الذي تواردت عليه معاني القرآن - كما رأينا نماذجه سابقاً - هو خاصية التوحيد الذي دارت عليه عبارات متألهي السلف وربانيهم، وما أحسن قول أبي العباس ابن تيمية ﷺ:
«والمقصود هنا أن الخليلين - محمد وإبراهيم - هما أكمل خاصية الخصاصة توجيداً... وكمال توجيههما يحقق غرائ الألوهة، وهو أن لا يبقى في القلب شيء لغير الله أصلاً» (2).
يا الله! ما أجمل هذا المعنى، اللهم لا تجعل في قلبي وقلوب إخواني شيء لغيرك أصلاً.
لقد جبلت النفوس البشرية على التعلق بالدنيا، والغفلة عن الآخرة، لذلك جاءت آيات القرآن فجعلت

(1) صحيح البخاري 660، 1/33، الطبعة السلطانية، وصحيح مسلم: 1031، 3/93، الطبعة العامرة، واللفظ له.
(2) منهج السنة: 355/7.
الأصل في الخطاب الدعوي ربط الناس بالآخرين، والتبع هو التأكيد على أهمية إعداد القوة، هذه نزعة ظاهرة في القرآن والسنة ووصايا السلف. ولكن للأسف جاءت خطابات دعوية مادية أرهقتها مواجهة التغريب فانكسرت وتشربت ثقافة الخصم ذاته، وصارت منهمكة في تذكر الناس بالدنيا، وجعلت التبع هو الآخرة، خطابات لم تعد تستحي أن تقول مشكلة المسلمين في نقص دنياهم لا نقص دينهم! ولكن لا يزال - وله الحمد - من المؤمنين يجالُ صدّلفاً ما عَنَّهُوا الله عِلَمًا فيهم من قَصَّ نعمة، ومِنْهُم مِنْ يَنُظُّرُونَ وَمَا يُدْفِنُونَ [الأخبار: 23].

إن الدعاء إلى الله الذي يحاولون دومًا توظيف الأحداث للتذكير بانه هؤلاء أعلم الناس بحقائق كتاب الله، وإن أولئك المفتونين الذين يسخرون من ربط الأحداث بالله، وهم ذلك: المبالغة في تدين الحياة العامة، تشويهاً لهذا الدور النبي، هؤلاء هم أجهل الناس بدين الله الذي وضعه في كتابه ببيان هو في غاية البيان.

وإذا تشبع قلب متدبر القرآن بهذه الحقيقة الكبرى الناظمة للآي القرآن أثررت له في نفسه عجائب الإيمان، وأصبح لا يساكن قلبه غير الله جل جل، وبرأ قلبه من الحول
والقوة إلا بالله سبحانه، وصار ينزل حاجاته بالله، وأصبح يشعر برياح القوة والإمداد الإلهي كما نقل الإمام ابن تيمية: "وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مِنْ سَرُّهُ أَنَّهُ يُكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فِي تَبْكِيرِ عَلَى اللَّهِ" (1).

فلا يلتفت القلب للأسباب في طلب الرزق، أو البعث عن مسكن، أو البحث عن وظيفة، أو طلب العلم، أو طلب الإيمان، أو طلب الصحة والعافية، أو طلب الإفراج عن اعتقال. إن، بل يصعد القلب إلى الله، ويجتهد في عمل القلب، ويقتضى في الأسباب بالقدر الشرعي.

وهل يشك من قارن بين مطالب القرآن، والكتب الفكرية المعاصرة التي تتحدث عن النهضة والتقدم؟ أنا ما زلنا بعيدين عن النهضة والحضارة بحجم بعد هذه الكتب الفكرية النهوضية عن أهداف وغايات ومطالب القرآن؟ بله عليك هل رأيت كتاباً فكرياً نهوضياً ينطلق في نظرية للنهضة من "آيات التمكين والاستخلاص"؟

هذا المعنى المبنث في تفاصيل آيات القرآن، وهو

(1) الفتاوي: 10/33/33.
عمارة النفس بالله، هو الحبل الناظم حقاً في كتاب الله، وقد سمي الله كتابه حبلًا كما قال تعالى: «وَاغْفِضُوا بِحَبْلِ اللَّهِ وَمَقْصُودَهُ جَمِيعًا» [آل عمران: 103]، ونبي الله صلى الله عليه وسلم عن أن هذا الحبل هو القرآن كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "كتاب الله ﷺ، هو حبل الله".(1)

وعمار النفس بالله مقصود شرعي عظيم، قال الإمام ابن تيمية: «فإن القلب بيت الإيمان بأيام تعالى ومحترقته ومحبته».(2)

وقال الإمام ابن القيم في النونية:

"فالقلب بيت الرَّب جَلَّ جَلَالُهُ حببا وإجلالا مع الإحسان"(3)

وليس المقصود طبعاً حمل الله تعالى الله عن ذلك - في قلوب عباده على طريقه التصوف الفلسفي الزائغ، بل المقصود عمارة القلوب بالأعمال التي يحبها الله ﷺ.

(1) صحيح مسلم: 2408، 123/7، الطبعة العامة.
(2) الفتاوى: 132/18.
(3) الكافية الشافية، البيت رقم: 5179، طبعة دار عالم الفوائد بإشراف: بكر أبو زيد.
سبحانه، وخلوته من الالتفات والانقياد لغير الله، على تلبيته إلى الله وطريقة التأله السلفي المهتدي.

على أية حال.. لقد بين الله لنا مراذه في القرآن غاية البيان، وأوضح لنا مطالبه الكبرى في كتابه بصنوف البيانات، والعُمْر يركض على شفير القبر، فما أقرب الساعة التي سيسألنا الله جميعاً عن تحقيق مراذه، وسيكون السؤال حينها على أساس القرآن يقول الله: «قد كنتُماَيِّنِي نُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُتِبْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ نَكْسُونَ» [المؤمنون: 61]، ويقول سبحانه: «أَلَمْ تَنَٰٓذِرُوا فِي مَا كَانَ مِنَ الْيَقَاعِدِ» [المؤمنون: 62]، ويقول أيضاً: «أَلَمْ تَنَٰذِرُوا فِي مَا كَانَ مِنَ الْيَقَاعِدِ» [المؤمنون: 63]، فتأمل كيف ستنظم الحياة المستقبلية على أساس القرآن.. ولينظر كل منا ما هو أساس حياته؟!
بعد هذه الجولات السريعة في عظمة كتاب الله، وأسرار التدبر المهيبة؛ يتساءل كثير من الناس عن طريقة التدبر؟ وهل هناك وصايا مختصرة حول الموضوع؟

الحقيقة أني رأيت كثيراً من المتخصصين في التفسير كتبوا رسائل رائعة في تدبر القرآن وتلاوته ووسائله، مثل: "قواعد التدبر الأمثل" للشيخ: عبد الرحمن حبكة الميداني، "تحزيب القرآن" للشيخ: د. عبد العزيز الحربي، "تعليم تدبر القرآن الكريم" للدكتور: هاشم الأهده، "فن التدبر" للشيخ: د. عصام العويد، و"المراحل الثمانية لطالب فهم القرآن" لنفس المؤلف، وغيرها من الكتب الطيبة في هذا المجال ولم أقصد الاستيعاب، بل مجرد ذكر نماذج.

ولكن دعنا نتذكر عددًا من المعالم العامة في هذا الموضوع، فوجهة نظري أنه:
أولاً: وقبل كل شيء يجب على الإنسان أن يتضرع إلى الله ويدعوه ويلح عليه أن يجعله من أهل القرآن، وأن يفتح عليه في فهم كتابه، والعمل به، وأن يجعله ممن قال عنهم: «كُلُّهُمَا كُلُّاهُمَا [البقرة: 121]»، فإن الإنسان لا يفتتح عليه في العبودية بمجرد الجهود الشخصية والتخطيط للانجاز، وإنما فتوحات العبودية من بركات اللجوء إلى الله، وكل أبواب الخير من العلم والديانة إنما هي من باب الاستعانة ولذلك أعقب الله العبادة في سورة الفاتحة التي هي أعظم سورة في القرآن والتي أمرنا الله أن نكرهها عشرات المرات يومياً (وهذا يعني أن مضامينها موضوعة بعناية وليست اتفاقاً) في هذه السورة العظيمة أعقب الله العبادة بالاستعانة، فالاستعانة بوابة العبادة، كما سبقت الإشارة إليه.

وثانياً: يحتاج المسلم إلى وضع حزب يومي للتذبّر، وهو ما يسمى بتحزيب القرآن، والأصل فيه أمر النبي ﷺ كما في البخاري أنه قال لعبد الله بن عمرو: «اقترا القرآن في شهر فلت إلى أرض فوّه حتى قال: فاقتراه في سبع ولا تزيد على ذلك» (1)، فجعل النبي ﷺ النطاق الزمني

(1) صحيح البخاري: 4، 504، 197/6، الطبعة السلطانية.
لتحريب القرآن بين «شهر - أسبوع» فلا يكون أكثر من شهر ولا أقل من أسبوع، وكان الصحابة لهم أحزاب وأوراد قرآنية يومية، وكان جمهور الصحابة يحجب القرآن في سبعة أيام، اليوم الأول ثلاث سور وهي البقرة وآل عمران والنساء، وفي اليوم الثاني السور الخمس التي تليها وهكذا، كما في السنن أن أوس بن حذيفة قال: «سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحجبون القرآن، قالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وسبع، وإحدى عشرة، وثلاث عشيرة، وجزب المفصّل وحيدة» (1).

وتلاحظ في تحريب الصحابة للقرآن أنهم يستعملون السور، وليس الأجزاء أو الصفحات، ولذلك يقول الإمام ابن تيمية: «فالصحابتان إنما كانوا يحجزونه سورةً تامةً لا يحجزون السورة الواحدة» (2).

ومن الرائع أن لا يغيب الإنسان على وردة من التدبر،هما كانت الظروف، والوردد اليومي من القرآن كما سمعت أحد الصالحين يقول: في اليوم الأول كالجبل وفي الثاني...

(1) سنن أبي داود: 1386، 3/ 1311، طبعة التأصيل.
(2) الفتاوى: 138/1208.
كُنَّس الجبل وفي الثالث كلا جبل وفي اليوم الرابع مثل الغذاء الذي تتأمل لفقده.

وثانياً: أن يكون الأصل هو التدبر الشخصي، والتفسير معين، لا العكس كما يفعل البعض، وخصوصاً لمن لديهم خلفية شرعية عامة تؤهلهم لفهم جماهير الآيات، والقرآن كما قسمه ابن عباس عليه أربع مرات، التفسير على أربعة أوجه: تفسير لا يعترف أحد بجهالته، وتفسير تعرفه العرب من كلامها، وتفسير تعرفه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله، فأتى إذا استحضرت تفسير ابن عباس العبقري عرفت أنه ليس كل القرآن يحتاج لتفسير فيقرأ الإنسان في المصاحف المهمشة بالتفسير، ومنها: التفسير الميسر الصادر عن مجمع الملك فهد، أو تفسير الجلالين، أو تفسير ابن سعدي، أو غيرها، فإذا أشكك التلفظ أو المعنى الإجمالي راجع الهمش، لكنه يحاول هو أن يستكشف الدلالات العظيمة في هذا القرآن العظيم، فإذا لم يكن متأكدًا من سلامة تدبره راجع كتب التفسير الموسعة.

وهذا الإمام العلامة أضخم مرجعية فقهية سنة معاصرة ابن عثيمين عليه السلام حين سُئل عن طريقة طلب العلم
وأولى العلوم بالعناية والاهتمام قال: "نقول: ابدأ بالتفسير قبل كل شيء، لكن هذا لا يعني ألا تقرأ غيره، ولكن ركز أولاً على علم التفسير... فعليك بالتفسير، أحرص عليه ما استطعت، وطريقة ذلك: أن تفكر أنت أولاً في معنى الآية، قبل أن تراجع الكتب، فإذا تقرر عنك شيء فارجع إلى الكتب، وذلك لأجل أن تمرن نفسك على معرفة معاني كتاب الله بنفسك، ثم إن الإنسان قد يفتح الله عليه من المعاني ما لا يجدها في كتب التفسير، خصوصاً إذا ترعرع في العلم وبلغ مرتبة فيه فإنه قد يفتح له من خزائن هذا القرآن الكريم ما لم يجد في غيره" (1).

فانظر إلى هذا الفقيه الإمام كيف يوصي طلابه بأن يقرأوا الآيات ويعتبروا منها ثم يراجعوا كتب التفسير، بل وكان يطبق ذلك عملياً فيعطيهم آيات ويطلب منهم أن يسهروا في الاستنباط منها ويأتون بها غداً.

ثم بعد ذلك يقرأ الإنسان في مطولات التفسير قراءة مستقلة، كتفسير الطبري وابن كثير وابن عطية ونحوهما.

ورابعًا: من أجمل الأمور أن يضع الإنسان لأهل بيته

(1) الباب المفتوح: اللقاء 86.
برنامجة في التفسير فيقرأون ويتبادرون في الاستنباط ثم يراجعون التفسيرات المختصرة، والأصل في ذلك قوله تعالى: {وَأَذَكَّرْنَا مَا يَتَّلَى فِي نُوحِ يُصَفِّي مَنْ كَانَ عَصَى اِلَّهَ وَالَّذِينَ مَعَهُ} (الأحزاب 27). فالنبي ﷺ كان يتلو على نسائه القرآن، وهذا له أثر لا يتصوره الكثيرون في تحبيب الأهل في القرآن والإقبال على الاستنباط منه، بل وستجد أهلك يصبحون دائمي التساؤل حول بعض تأملاتهم للقرآن وهدايات آياته، وأهم من ذلك كله ستجد في أهلك قوة على الطاعة ونظرة مختلفة للدنيا وزخرفها، فهذا القرآن عجيب عجيب في تصحيح المفاهيم وتركية النظارات والنصوص.

وخامساً: لا أعلم درساً شرعياً في كل علوم الإسلام أسسه النبي ﷺ وأصله نظريًا بنفسه إلا تدرس القرآن، فكل دروس الشريعة نوع من الإجهاد في تنظيم العلم إلا تدرس القرآن فهو منصوص كما قال النبي ﷺ: {مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بَيْوتِ الْمَرْحَمَةِ وَيَتَّلُونَ كِتَابَ الْلَّهِ وَيَنْزِلُونَ عَلَيْهِمْ بَيْتِهمُ إِلَّا نَزَّلَ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ وَعَشِيْتَهُمْ الرَّحْمَةَ وَحَفَّتَهُمْ المَلَائِكَةُ وَذَكَّرَهُمْ الَّذِينَ كَانُوا عَبْدًا} (1). هذا هو أعظم

(1) صحيح مسلم: 2199، 7/1. الطبعة العامة.
الدروس الشرعية التي يحبها الله، ولذلك ما أجمل أن يضع الإخوان لأنفسهم برنامجاً أسبوعياً يحضر كل منهم من تفسير معين ثم يتدارسون معانيه، هذا البرنامج يزود المسلم بالطاقة الإيمانية والمنهجية التي تعينه على صعوبات الحياة.

والطرق متنوعة، والموضوع متشعب، والكتب المتخصصة كثيرة، والمقصر يخجل من مناصحة الآخرين، ولكنه التذكار والتباحث في موضوع أخشى أننا لم نقدر به قدره بعد.

ولقد تأملت سيرة الصحابة في سير أعلام النبلاء، وبعض طبقات ابن سعد، وبعض حلية أبي نعيم، فهالني والله ما رأيت من إقبالهم وتكشف جهودهم في القرآن، وعلمت حينها ما الذي نحن أولئك تلك المزية، بل انظر في أخبار أبي العباس ابن تيمية الذي كتب في التفسير رسائل كثيرة، كتفسير آيات أشكلت، وتفسير سورة الإخلاص، وجمع مطلقات في تفسير السلف نسقاً على الآيات "أكثرها مفقود" وجلس سنة يفسر سورة نوح، ومع ذلك حين اعتقل المرة الأخيرة في قلعة دمشق وسحبت منه الكتب والأقلاع أقبل على القرآن وقال: "قد فتح الله عليّ
في هذه المرة من معاني القرآن ومن أصول العلم بأشياء كثيرة من العلماء يتمنونها ونديمُ على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن (1)، هذا أبو العباس يندم على تضييع أكثر أوقاته في غير معاني القرآن، برغم أنه من آئمة التفسير أصلاً! لماذا نقول نحن المقصرين مع كتاب الله.

اللهُمَّ اجعلنا من أهل القرآن، اللهُمَّ اجعل القرآن أنيسنا في ليلنا ونهارنا، اللهُمَّ شفع سورة تبارك فيها في قبورنا، اللَّهُمَّ اجعل البقرة وآل عمران غايتان تحاجان لنا يوم القيامة، اللَّهُمَّ أحبتنا بحننا لسورة قل هو الله أحد، اللَّهُمَّ آمين، اللَّهُمَّ آمين.

وصلِّ الله وسلِّم وبارك على النبيّـنا محمد وآله وصحبه.

(1) العقود الدرية: 44.
المحتوى

<table>
<thead>
<tr>
<th>الصفحة</th>
<th>الموضوع</th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td>5</td>
<td>سخَّل</td>
</tr>
<tr>
<td>9</td>
<td>سيَّطوة القرآن</td>
</tr>
<tr>
<td>21</td>
<td>تأمل كيف أنبهروا</td>
</tr>
<tr>
<td>28</td>
<td>منطقة الآشوريين</td>
</tr>
<tr>
<td>37</td>
<td>القلوب الصَّحيحة</td>
</tr>
<tr>
<td>42</td>
<td>الشَّامرة</td>
</tr>
<tr>
<td>48</td>
<td>تطوين الطريق</td>
</tr>
<tr>
<td>54</td>
<td>من مناطق التبت</td>
</tr>
<tr>
<td>61</td>
<td>كل التوجه في أم الكتاب</td>
</tr>
<tr>
<td>71</td>
<td>دوَّر اليماني الرمضانية</td>
</tr>
<tr>
<td>79</td>
<td>الجبل النافذ في كتاب الله</td>
</tr>
<tr>
<td>120</td>
<td>الفاصلة</td>
</tr>
</tbody>
</table>